

أيام في حياة المصطفى ﷺ



من الفجر إلى العشاء: في بيته، ومع أصحابه، وفي الحرب

إعداد

د. محمد عمارة

إهداء

إلى أمي،

متّعها الله بالصحة والعافية، وبارك لها في عمرها وعملها
هذا الكتاب صدقةً جاريةً لها، أسأل الله أن يجعل ثوابه في ميزان حسناتها

جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، من أحقُّ الناس
بِحُسْنِ صَاحِبَتِي؟ قال: «أُمُّكَ». قال: ثم من؟ قال: «ثُمَّ أُمُّكَ». قال: ثم
من؟ قال: «ثُمَّ أُمُّكَ». قال: ثم من؟ قال: «ثُمَّ أَبُوك».

— متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه

وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ
أَرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾

سورة الإسراء : ٢٤

الفهرس



مقدمة

تمهيد: كيف يُقرأ يوم؟

الفصل الأول – قبل أن تستيقظ المدينة

الفصل الثاني – في بيته

الفصل الثالث – على مائدته

الفصل الرابع – في المسجد مع أصحابه

الفصل الخامس – يوم الجمعة ويوم العيد

الفصل السادس – مع الصغار

الفصل السابع – الخمسون ليلة

الفصل الثامن - في الحرب

الفصل التاسع - في السفر

الفصل العاشر - يوم حراء

الفصل الحادي عشر - ليلة الإسراء والمعراج

الفصل الثاني عشر - يوم الهجرة

الفصل الثالث عشر - يوم الحُدَيْبِيَّة

الفصل الرابع عشر - يوم فتح مكة

الفصل الخامس عشر - غنائم حنين: الأنصار

الفصل السادس عشر - شهر في الغرفة

الفصل السابع عشر - يوم عرفة

الفصل الثامن عشر - آخر النهار

الفصل التاسع عشر - آخر الأيام

خاتمة: ما بين الفجرين

مقدمة



إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله الذي بعث فينا رسولا من أنفسنا: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾. وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد، وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

أما بعد، فإني أقف على باب هذا الكتاب وقوف العاجز الذي أراد أن يصف القمر بالكلمات، وهو يعلم أن القمر لا يُحدّ بالكلمات. وإن نور القمر يغيب، فنور رسول الله ﷺ لا يغيب. ما أنا بعالمٍ يؤخذ عنه، ولا بمؤرخٍ يُحتجّ به، وإنما أنا محبٌ قصر به العمل ولم يقصر به الشوق. أردتُ أن أقف عند الأبواب التي دخل منها الصحابة على رسول الله ﷺ، فأنتقل ما رأوا: من هداة ليله وضجبه نهاره، ومن دفء بيته وشدة ميدانه، ومن قيامٍ طويلٍ في سجوده وبسمة أضواء وجهه.

ولقد ترددتُ طويلاً قبل أن أكتب، فإن الكتابة عن النبي ﷺ باب عظيم الشرف، عظيم الخطر. أما شرفه فلائك تجالس سيرةً هي أنقى ما عرفته الدنيا، وأما خطره فقد بينه هو ﷺ بقوله:

«من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار».

— متفق عليه عن أبي هريرة والمغيرة بن شعبة رضي الله عنهما

فلذلك جعلتُ حدّ هذا الكتاب أن لا أنسب إليه ﷺ قولاً ولا فعلاً إلا ما جاء في الصحيحين، وأن أجعل ما سوى ذلك من وصفٍ للمكان وتأملٍ في الحال صورةً أدبيةً أعلنها للقارئ ولا أدعي أنها نصّ. فإن كان فيه من صوابٍ فمن الله وحده، وله الحمد والمنّة، وإن كان فيه من خطأ أو زللٍ فمن نفسي ومن الشيطان، وأستغفر الله منه، وأرجو من القارئ الكريم أن يردّني إلى الحق إن وجد خلاً.

ولم يكن الباعث على هذا الكتاب أن يزداد الناس علماً بأخبار النبي ﷺ فحسب، بل أن يزدادوا له حباً. فإن الحبّ أقرب الطرق إلى الاتباع، ولا يتبع النبي ﷺ من لا يحبه. وقد جعل الله محبته شرطاً لمحبة العبد ربّه:

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ
لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾

سورة آل عمران : ٣١

وما أحسبني بالغاً بهذه الصفحات حقّ هذا النبي العظيم، فإنه ﷺ أكبر من كل وصف، وإنما أبذل جهد المقلّ، وأرجو أن يكون فيما كتبتُ ما يقرب قلباً إليه، أو يردّ غافلاً إلى هديه، أو يدفئ نفساً أصابها برد الدنيا.

وإني لأسأل الله أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم، فإنما الأعمال بالنيّات:

«إنما الأعمال بالنيّات، وإنما لكل امرئ ما نوى».

— متفق عليه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه

وإني أختم هذه المقدمة بما أمر الله به من الصلاة على نبيه، فهو القائل:

إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا

صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾

سورة الأحزاب : ٥٦

«من صلّى على صلاةٍ صلّى الله عليه بها عشرًا».

— رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه

وقد جعلتُ هذا الكتاب صدقةً جاريةً لأمي، متّعها الله بالصحة والعافية، وبارك لها في عمرها وعملها، وجعل ما فيه من نفعٍ في ميزان حسناتها. فإن كان فيه خيرٌ فهو هديةٌ بين يديها، وإن كان فيه تقصيرٌ فعذري أنني أردتُ البرّ بما استطعت. وأسأل الله الكريم أن يجعل ثوابه لها، ولكل من قرأه أو أعان على نشره أو دعا لكتبه.

اللهم تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم،
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه الفقير إلى عفو ربه: محمد عمارة

تمهيد: كيف يُقرأ يوم؟



ليس في تاريخ الرجال يومٌ رُوي من أوله إلى آخره كما رُوي يوم محمد

ﷺ

لا يكاد التاريخ يحفظ لعظيمٍ من العظماء يوماً كاملاً. يحفظ له معركة، أو خطبة، أو معاهدة، أو كلمة قالها وهو على أبواب الموت. أما أن يحفظ له كيف استيقظ، وبماذا بدأ، وما الذي فعله في بيته حين أغلق الباب، وكيف جلس مع الناس، وماذا قال لما اصطفت الصفوف وأسلت السيوف، فذلك ما لم يُعرف لأحدٍ إلا للنبي العظيم ﷺ. وقد نُقلت إلينا صلاته وطعامه ومشيته وضحكته ونومته ومجلسه وبكاؤه وصمته؛ لا لأن أصحابه كانوا أصحاب دفاتر، بل لأنهم أيقنوا أن كل حركةٍ من حركاته درسٌ، وأن كل درسٍ منها بابٌ إلى الله.

والعقل الذي ينظر في هذه الأيام لا يملك إلا أن يسأل: كيف اجتمع في النبي العظيم ﷺ ما لا يجتمع عادةً في عشرة؟ قائدٌ يقف في الصف الأول حين يجرّ البأس، ثم يعود إلى بيته فيخدم أهله. مُشرّعٌ تنزل عليه أحكام الأمم، ثم يضع في فم الصغير تمرّةً قد مضغها. والنبي العظيم ﷺ يقف بين يدي ربه حتى تتورم قدماه، ثم يُقبّل الحسن بن علي وينكرو¹⁰ على من لا يُقبّل أولاده. إن التناقض

الظاهر هنا ليس في النبي العظيم ﷺ، بل في أعيننا نحن التي اعتادت أن تقسم الإنسان شطرين: صلابة بلا رحمة، أو رحمة بلا صلابة.

وهذا الكتاب محاولة لأن نقف على عتبة ذلك اليوم، من قبيل الفجر إلى ما بعد العشاء، ومن حجرة من لبنٍ وجريد إلى ميدانٍ تَطِير فيه الرماح. وقد حاولنا أن نجمع في الكتابة بين نظرتين: نظرةٍ تحلّل وتوازن وتقيم الحجة على الشاهد، فلا تقبل وصفاً إلا ومعه دليله، ولا تذكر خلقاً إلا وتردّه إلى أصله، ونظرةٍ تفتح الإطار على اتساعه فترى الفجر والغبار والخليل والجماعات والحياة الصغيرة اليومية في قلب الحدث الكبير، وترى الإنسان صغيراً وسط التاريخ الكبير وهو مع ذلك أكبر منه.

على أن للصدق شرطاً لا نتنازل عنه. كل ما جاء بين علامتي التنصيص منسوباً إلى النبي ﷺ أو إلى صاحبٍ من أصحابه فهو نصُّ الحديث الصحيح أو قريبٌ منه جداً، ومصدره مذكور تحته، ومداره على البخاري ومسلم. وكل ما عدا ذلك من وصفٍ للمكان والليل والريح وخلجات النفوس فهو تصويرٌ أدبيٌّ نقف به عند حدود الثابت، ولا ننطق به النبي ﷺ بقولٍ لم يرد، ولا نلبسه شعوراً لم يرو عنه. وآياتُ القرآن منقولةٌ من المصحف بالرسم العثماني.

الفصل الأول

قبل أن تستيقظ المدينة



وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ ۚ نَافِلَةً لَّكَ

في آخر الليل تكون المدينة كأنها جسدٌ نائمٌ لم يبلغه الصباح بعد. بعيداً في الحرّة الشرقية تلمع النجوم على حجارها السوداء، وفي الوادي تنام الإبل بركةً حول الآبار، والغلّة في الأكياس قليلة والصبر كثير. النخيل ساكنٌ إلا من حفيفٍ خفيف. البيوت الطينية الصغيرة ملتصقةٌ بجدار المسجد وأبوابها تطلّ عليه.

وفي أحد هذه البيوت، في ليلةٍ من الليالي، كان غلامٌ في نحو العاشرة من عمره يتظاهر بالنوم. هو عبد الله بن عباس، ابن عم النبي ﷺ، وقد بات عند خالته ميمونة وهو يريد شيئاً واحداً: أن يرى كيف يصلي رسول الله ﷺ بالليل. اضطجع الغلام في عرض الوسادة. ومرّ من الليل ما شاء الله أن يمرّ، والغلام يكاد يغلبه النوم ويقاوم، حتى انتصف الليل أو قاربه، فاستيقظ النبي ﷺ.

ويا لها من لحظةٍ لو كان في الدنيا من يصورها! النبي العظيم ﷺ، وقد جاوز الخمسين، جلس على فراشه وجعل يمسح النوم عن وجهه بيده. ثم رفع بصره إلى السماء وتلا أواخر سورة آل عمران:

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا
وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا
عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾

سورة آل عمران : ١٩٠-١٩١

قال ابن عباس: ثم قام فتوضاً من قريةٍ معلّقة وضوءاً خفيفاً، ثم قام يصلي. فقامتُ فصنعتُ مثل ما صنع، وذهبتُ فقامتُ إلى جنبه، فوضع يده اليمنى على رأسي وأخذ بأذني اليمنى يفتلها، فصلّى ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين، ثم أوتر، ثم اضطجع حتى جاءه المؤذن فقام فصلّى ركعتين خفيفتين ثم خرج فصلّى الصبح.

فقام النبي ﷺ فجعل يمسح النوم عن وجهه بيده، ثم قرأ العشر الآيات الاخوات من سورة آل عمران، ثم قام إلى شئٍ معلّقة فتوضاً منها فأحسن وضوءه ثم قام يصلي... فوضع يده اليمنى على رأسي وأخذ بأذني اليمنى يفتلها.

— رواه البخاري ومسلم عن ابن عباس

يد على رأس غلام

هذا النبي العظيم يقف بين يدي ربه في أخص لحظات عمره، ومع ذلك لا يغيب عن الغلام الواقف بجواره. إنه لا يزجره ولا يبعده، ولا ينقطع عن صلاته ليلقنه. يضع يده على رأسه ويقتل أذنه، وهي حركة من يطمئن صغيراً في عتمة الليل أن أحداً معه. وفي هذا وحده ما يُسقط ذلك الوهم القديم الذي يجعل العبادة انغلاقاً على الذات وقطعاً للصلة بالناس. إن أعمق الخلوات عند النبي ﷺ لم تكن تُغلق بابها على إنسانٍ يحتاج إليه.

لماذا يقوم من غُفر له؟

وللعقل هنا سؤال لا مفرّ منه، سألته عائشة رضي الله عنها يوماً وقد رأت قدميه تتشققان من طول القيام.

كان النبي ﷺ يقوم من الليل حتى تُتفطر قدماه، فقلتُ له: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غُفر لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أحبُّ أن أكون عبداً شكوراً؟»

— متفق عليه عن عائشة والمغيرة بن شعبة رضي الله عنهما

فجوابه ﷺ يقرّر أن العبادة عنده ليست أجرة تُدفع ولا ثمناً يُسَدّد. فلو كانت صلاته ثمناً لمغفرة لسقطت عنه بعد أن غُفر له، لكنها كانت شكراً، والشكر لا ينتهي بانتهاء النعمة بل يزيد بها. ومن هنا كان الفرق بين أن يصلي الإنسان ليعفى من العقاب، وأن يصلي لأنه لا يطيق أن يمرّ عليه عطاءٌ دون أن يقول: شكراً. وقد كان الله يأمره بهذا من قبل⁴ أن يأمر به أحداً:

يَأْتِيهَا الْمَزْمَلُ ﴿١﴾ قُمْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نَصَفَهُ أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾

سورة المزمل : ١-٤

وإن في قوله ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ لِسِرٍّ اليوم كله. فالرجل الذي سيقود جيشاً ويحكم مدينة ويقضي بين خصومها يبدأ يومه بأن يتمهل في كلمات ربه كلمةً كلمة. كأن الحكمة الأولى التي يتعلمها الحاكم قبل أي شيء: أن يتعلم كيف يتوقف، وكيف يسمع، وكيف يقول للعجلة: ليس الآن.

السواك، والاستيقاظ، وركعتان

وفي كل خطوةٍ من خطوات هذا الفجر تفصيلٌ صغيرٌ نتوقف عنده الذاكرة. كان إذا قام من الليل يدلك فيه بالسواك، حتى إنه قال ﷺ: «لولا أن أشقَّ على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة». وكان إذا استيقظ قال ما حفظه عنه حذيفة: «الحمد لله الذي أحياناً بعد ما أمانتنا وإليه النشور». فانظر كيف سمى النوم موتاً صغيراً، والاستيقاظ بعثاً صغيراً، فصار كل صباحٍ عنده بروفةٌ مصغرةٌ ليوم القيامة.

كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يشوصُ فاه بالسواك.

— متفق عليه عن حذيفة رضي الله عنه

كان النبي ﷺ إذا استيقظ قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور».

— رواه البخاري عن حذيفة رضي الله عنه

وأما ركعتا الفجر فكانت أشد ما حافظ عليه من النوافل. قالت عائشة:

لم يكن النبي ﷺ على شيء من النوافل أشدّ تعاهداً منه على ركعتي الفجر.

— متفق عليه

ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها.

— رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها

ها هنا يتقاطع الجلال والحياة الزوجية: النبي العظيم الذي سيقود الأمة في صلاة الصبح يقضي دقائق الفجر الأخيرة يتحدث إلى زوجته إن كانت مستيقظة. لم يكن في بيته نبياً كل ساعة بالمعنى الذي يتخيله من لا يعرف، بل كان نبياً إنساناً قبل أن يكون.

ثم ينطلق صوت بلال في السماء الداكنة، فيتحرك الحي كله. يُفتح باب ويُغلق آخر. تتلاقى الخطى على الطرق الترابية الضيقة. ويخرج النبي ﷺ إلى المسجد، وقد أنهى في نحو ساعة أو ساعتين ما لا يُنبيه غيره في عمر: علاقةً مع ربه، وعلاقةً مع أهله، وعلاقةً مع غلامٍ نائمٍ كاد أن يُنسى.

والتحليل المنصف لهذا الفجر يقف عند ثلاث ملاحظات. أولاها الانتظام: فالعبادة عنده لا تأتي على هوى النشاط، بل لها وقتٌ معلوم يُلزم نفسه به كما يلزمها القائد بموعد المعركة. وثانيها البساطة: وضوءٌ من قربةٍ معلقة، وفراشٌ من آدم حشوه ليف، وغلامٌ في عرض الوسادة، فليس في الأمر طقسٌ مصطنع ولا مشهدٌ يُعدّ للناظرين. وثالثها التوازن: فلم يكن القيام يُنسيه حقّ الأهل ولا حقّ الصغير، ولا كان حقّ الأهل يصرفه عن القيام. وهذه الثلاثة هي ما يسميه علماء النفس اليوم انضباط الذات، وما سمّاه القرآن أول ما سمّاه: تزكية.

الفصل الثاني

في بيته



لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ

لو أردنا أن نعرف رجلاً على حقيقته فلننظر إليه حين لا يكون أمامه جمهور. فللبطل عند الناس وجهٌ وعند أهله وجهٌ آخر، وكثيرٌ من العظماء تنكشف عظمتهم كسرابٍ حين يُغلق الباب. فإذا وجد أهل بيت النبي ﷺ حين أُغلق الباب؟ لقد سُئلت عائشة رضي الله عنها هذا السؤال بعينه، وجاء جوابها قصيراً كأنه تقرير طيب.

سُئلت عائشة: ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: «كان يكون في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة».

— رواه البخاري

مهنةُ أهله: أي في خدمتهم وأعمال البيت. اكتفت عائشة بهذه الجملة، وما أعظم ما فيها. إن من يُنتظر وحي السماء على لسانه لا يجد غضاضةً في أن يكون في عمل البيت، وإن من يملك أن يأمر الناس كلهم لا يتكئ على أحدٍ في بيته.

والفاصل عنده بين عمل البيت وعمل الدعوة ليس فاصل المقام، بل فاصل الوقت: فإذا أذن المؤذن ترك هذا وذهب إلى ذاك، فلا مقام أعلى يتعالى به، ولا مقام أدنى يأنف منه.

عشر سنين وكلمة واحدة لم تُقل

وشاهد آخر من داخل البيت، هو أنس بن مالك، الذي جاء إلى النبي ﷺ صبيًا في العاشرة نخدمه عشر سنين. فإذا قلت: إن أشد ما يكشف الطبع هو الخدمة الطويلة، فقد سكب أنس في ذلك كلمة ما زالت تهز القلب:

خدمتُ النبي ﷺ عشر سنين، فما قال لي أفّ قط، ولا قال لشيءٍ صنعته: لمَ صنعته؟ ولا لشيءٍ تركته: لمَ تركته؟
— متفق عليه عن أنس رضي الله عنه

وتأمل أن أنسًا كان صبيًا، والصبيان يكسرون ويتلفون ويتأخرون وينسون. عشر سنين في بيت النبي العظيم، وعليه عبء الدنيا كلها، ولا كلمة سخر واحدة. هذا ليس مزاجًا هادئًا فحسب، فالمزاج الهادئ قد ينفد مع الضغط. هذا شيء آخر: إنه حلم بنته العقيدة، وصبر رأى أن الإنسان الصغير أمانة عند الكبير.

وعائشة تقول ما يكمل هذه الصورة:

ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده، ولا امرأة ولا خادماً، إلا أن يجاهد في سبيل الله.

— رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها

ما خيّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه.

— متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

الأسودان

قالت عائشة رضي الله عنها لابن أختها عروة:

والله يا ابن أختي، إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين، وما أوقدت في أبيات رسول الله ﷺ نار. قلت: يا خالة، فما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان: التمر والماء.

— متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

ثلاثة أهلة في شهرين، أي نحو ستين يوماً لا توقد ناراً في بيت واحد. لا خبز ولا طبخ. تمر وماء. والنبي ﷺ يملك أن يملأ بيوته لو أراد، فقد جاءته الغنائم من خير وحنين ومن غيرهما. لكنه كان يخرجها كلها، فما بقي في بيته منها إلا القليل. وهنا يتقدم السؤال الذي لا تخلو منه ترجمة لعظيم: أي نفس هذه التي تملك القدرة على الترف فتصرف وجهها عنه؟ إن الفقير الذي لا يجد لا فضل

له في ترك الدنيا، أما الذي تُفتح له الدنيا فيُغلّقها بيده، فهذا الذي يُقال فيه إنه وقف على أعلى درجات الزهد.

على أن هذا الزهد لم يكن عبوساً. فقد كان ﷺ يحب الحلواء والعسل، كما قالت عائشة، ولم يرَ في ذلك منافاةً لدينه. فالزاهد عنده لا يُحرّم الطيبات، بل لا يُسلم لها قلبه. ومن تأمل هذه الثنائية أدرك أن أصعب الأمور ليست في الحرمان ولا في الإفراط، وإنما في ذلك الميزان الدقيق الذي لا يقدر عليه إلا إنسانٌ بلغ تمام التوازن.

كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء والعسل.

— رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها

وهي تنظر إلى الحبشة

وأجل ما في هذه الحياة البيتية مشهد ذلك اليوم الذي جاء فيه الحبشة يلعبون بحراهم في المسجد، في يوم عيد. ولترك عائشة تحكيه:

رأيتُ النبي ﷺ يسترني بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد، حتى أكون أنا التي أسأم، فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو.

— متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

هنا النبي العظيم واقفٌ في وجه الريح يسترها بردائه، وقد بلغ ما بلغ من المقام، ويطيل الوقوف لأن زوجته ما زالت تحب² أن تنظر. يقف حتى تكون هي التي

تمل. ولو أن قائداً من قادة الأمم وقف على هذا النحو لصار خبره أسطورةً تُحكى عبر الأجيال، لكن الرواة ذكروه هنا عرضاً في سياق رواية أخرى، كأنه أمرٌ عادي في ذلك البيت.

لا يَفْرَكُ مؤمنٌ مؤمنةً، إن كره منها خلقاً رضي منها آخر.

— رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه

استوصوا بالنساء خيراً.

— متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه

ومن هذه المشاهد الصغيرة نفهم لماذا كانت الشهادة القرآنية له جامعة مانعة، نزلت في مكة وهو لم يكمل طريقه بعد:

وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾

سورة القلم : ٤

والخلق العظيم في البيت ليس أن يُحسن الزوج إذا أقبل الناس. هو أن يُحسن حين يغيب الناس، وهذا هو الامتحان الذي لا يجتازه إلا من كان إحسانه عنده طبعاً لا موقفاً. وقد اجتازه النبي ﷺ عشرات السنين، وشهد له من عاشوا معه في السراء والضراء والجوع والغنى.

الفصل الثالث

على مائدته



وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا

للمائدة في حياة الناس لغة لا تكذب. فالرجل قد يتحكّم في وجهه وكلامه، لكنه حين يجلس إلى الطعام تظهر طبيعته: شره أم قنوع، متكبر أم متواضع، يبحث عن نفسه أم عمن حوله.

لا يعيب طعاماً

ما عاب رسول الله ﷺ طعاماً قط، إن اشتهاه أكله وإن كرهه تركه.

— متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه

وتأمل ما في هذه الجملة من أدب لا يلتفت إليه. إن في كل بيت طعاماً لا يعجب بعض الآكلين، وفي كل مائدة من يحتقر ما قدّم إليه فيجرح من أعدّه. أما هو ﷺ فلا يأكل ما لا يشتهي ولا يذمه، يتركه ويسكت، فلا يشعر صاحبة البيت بأنها قصّرت. وقد جاءه ذات²⁹ مرة طعام الضبّ فلم يأكله، وأكله

الصحابة على مائدته، فقال: إنه لم يكن بأرض قومي فأجدني أعافه. تركه من غير أن ينهى عنه ولا أن يُنقَر منه.

يا غلام، سَمَّ الله

وكان عمر بن أبي سلمة ربيبه، غلاماً صغيراً في حجر رسول الله ﷺ، يأكل معه ويده تطيش في الصحيفة، أي تتحرك هنا وهناك، فتصيب من كل جانب. ولو كان الأمر عند غيره لانفجر الأب أو الزوج غضباً من الفوضى. لكنه ﷺ قال له قولةً صارت أدباً للمسلمين كلهم:

«يا غلام، سَمَّ الله، وكل بيمينك، وكلِّ مما يليك». قال عمر: فما زالت تلك طعمتي بعد.

— متفق عليه عن عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه

ثلاث وصايا في جملة واحدة، وفي كلمتين لطيفتين في أولها ما يُغني عن الزجر. لم يقل: أنت تأكل بشكلٍ سيئ. قال: يا غلام، فناداه بالاسم الذي يحبه الصغار حين يُنادون به من كبير، ثم أرشده. وقال عمر بعد ذلك: ما زالت تلك طعمتي بعد. أي أن كلمةً هادئةً واحدةً غيرت عادةً مدى العمر.

ثلاث ليالٍ تباعاً

وإذا أردنا أن نعرف ما كان على هذه المائدة فلنسمع عائشة رضي الله عنها وقد عاشت معه قرابة تسع سنين:

ما شبع آل محمد ﷺ منذ قدم المدينة من طعامٍ برِّ ثلاثِ ليالٍ تباعاً
حتى قبضُ.

— متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

وليس هذا البيت بيت حرمانٍ ولا شكوى، بل كان في رضاه أوسع من قصور
كثيرة. ثم إن ضيق ذات اليد لم يمنعه من الكرم، وإنما صنع منه كرمًا خاصًا لا
يعرفه إلا من لا يملك. كان ﷺ يقول فيما رواه جابر:

«طعام الواحد يكفي الاثنين، وطعام الاثنين يكفي الأربعة، وطعام
الأربعة يكفي الثمانية».

— رواه مسلم عن جابر رضي الله عنه

هذه ليست حسابات اقتصادية، وإنما هي هندسةٌ للقلوب: أن يتقاسم الناس
القليل فيصير كثيرًا، وأن تنفتح موائدهم على من هو أقل منهم. وفي هذا المبدأ
سرٌّ مجتمعٌ كان فقيرًا فصنع ما لم يصنعه الأغنياء. وقد جعل ذلك أصلًا في
الضيافة:

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه».

— متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه

ولعل أجمل ما روي في هذا الباب قصة أبي هريرة، وهو يرويها عن نفسه بصدق لا يخجل. كان الجوع قد بلغ منه مبلغاً حتى إنه ليسأل الصحابة عن آية هو أعلم بها منهم، يرجو أن يفهموا حاجته فيطعموه. مرّ عليه أبو بكر فسأله عن آية فلم يفهم، ومرّ عمر فسأله فلم يفهم. ثم مرّ رسول الله ﷺ، فعرف ما في وجهه وما في نفسه من أول نظرة، فتبسّم وقال: «أبا هرّ». قال: لبيك يا رسول الله. قال: «الحق».

ومضى به إلى البيت، فاستأذن فأذن له، فوجد لبناً في قدح. فسأل أهل البيت: من أين لكم هذا اللبن؟ قالوا: أهده لك فلان أو فلانة. فقال: «أبا هرّ». قال: لبيك يا رسول الله. قال: «الحق إلى أهل الصفة فادعهم لي».

وأهل الصفة أضياف الإسلام، لا أهل لهم ولا مال، ينامون في ظلة المسجد. وفي قلب أبي هريرة غمٌّ لا يُخفيه: ما هذا اللبن بين أهل الصفة؟ كنتُ أحتق أن أصيب من هذا اللبن شربةً أتقوى بها، فإذا جاء القوم كنتُ أنا الذي أديرهم عليهم، فما عسى أن يبلغني من هذا اللبن؟ ولكن من طاعة الله وطاعة رسوله بدّ، فأتاهم فدعاهم، فأقبلوا واستأذنوا فأذن لهم، وأخذوا مجالسهم من البيت.

قال أبو هريرة: ثم قال: «يا أبا هرّ، خذ فأعطهم». فأخذت القدح، فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يرده إليّ، فأعطيه الآخر فيشرب حتى يروى، حتى انتهيت إلى النبي ﷺ، وقد روي القوم كلهم. فأخذ القدح فوضعه على يده، ونظر إليّ فتبسّم وقال: «أبا هرّ». قلت: لبيك يا رسول الله. قال: «بقيت أنا وأنت». قلت: صدقت يا رسول الله. قال: «أقعد فاشرب». فقعدت فشربت. فقال: «اشرب»، فشربت. ثمّ زال يقول: «اشرب» حتى قلت: لا

والذي بعثك بالحق ما أجد له مسلماً. قال: «فأرني». فأعطيته القدح، فحمد الله وسَمَّى وشرب الفضلة.

فأعطيته القدح، فحمد الله وسَمَّى وشرب الفضلة.

— رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه

انظر إلى ترتيب الشرب: أهل الصفة أولاً، ثم أبو هريرة، ثم هو في الآخر، يشرب الفضلة ويحمد الله ويسمّي. وهذا الذي تسمّيه الأخلاق الحديثة إثارة هو عنده نظامٌ عام: القائد آخر من يأكل، والجائع قبل الشبعان، والصغير قبل الكبير. وكان قد عرف جوع أبي هريرة من وجهه قبل أن يشكو. وقد وصف القرآن هؤلاء الذين يطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيمماً وأسيراً، فكان هو أول من تجسّد فيه هذا الوصف:

وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا
﴿٨﴾ إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا
شُكُورًا ﴿٩﴾

سورة الانسان : ٨-٩

الفصل الرابع

في المسجد مع أصحابه



فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ

ينقضي الصبح بتكبير الصلاة، وقد اجتمع في المسجد أهل المدينة: مهاجرون تركوا أموالهم ودورهم في مكة، وأنصار فتحوا لهم القلوب قبل البيوت، وفقراء من أهل الصُّفَّة ينامون في المسجد لا يملكون غيره، وأعراب قدموا من البوادي ولا يعرفون بعدُ آداب المدينة. فإذا انتهت الصلاة لم يقيم النبي ﷺ من مصلاه حتى تطلع الشمس.

كان لا يقوم من مصلاه الذي صلى فيه الصبح حتى تطلع الشمس،
فإذا طلعت قام.

— رواه مسلم عن جابر بن سمرة رضي الله عنه

وفي هذا الجلوس ما يُشبهه مجلس القيادة الأول، وكان أول ما يفتح به هذا المجلس سؤالاً لطيفاً عن رؤى أصحابه، كما رواه سمرة بن جندب:

كان النبي ﷺ مما يُكْثَرُ أن يقول لأصحابه: «هل رأى أحدٌ منكم من رؤيا؟» قال: فيقصُّ عليه من شاء الله أن يقصَّ.

— رواه البخاري عن سمرة بن جندب رضي الله عنه

يسألهم عن أحلامهم. وفي هذه الجملة وحدها ما يقول إن هذا النبي العظيم لا يريد من أتباعه أجساداً تُطيع بل نفوساً تُحَدِّث. إنه يريد أن يعرف ما في داخلهم، ويفتح لهم باب البوح صباحاً. وتُخِيلُ مجلساً فيه أعرابيٌّ خشن وفتيٌّ مدلل وشيخٌ من كبار قریش، كلهم يقصون ما رأوا في النوم أمام النبي العظيم وهو يستمع.

البول في المسجد

ويقع في هذا المسجد ما لا يتوقعه أحد. يدخل أعرابي لا يعرف حرمة المكان، فيقف في ناحية منه ويبول. تنفجر الأصوات: مه مه! ويتقدم الرجال ليزجروه. إن المشهد على ما فيه من فظاظة في ظاهره لا يملك مؤرخ النفس أن يتجاوزه. فهناك الغيرة على حرمة المسجد، وهناك الأعرابي الذي لم يتعلم، وهناك النبي العظيم الذي بيده القرار.

قال النبي ﷺ: «لا تُزْرِمُوهُ، دعوه». فتركوه حتى بال، ثم دعا بدلو من ماء فصبَّ عليه. وقال: «إِنَّمَا بُعِثْتُ مُبَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ».

— رواه البخاري عن أبي هريرة وأنس رضي الله عنهما

فانظر كيف حوّل الحادثة من فضيحةٍ إلى درس. لو زجروه لقام خائفاً وربما أوقف بوله في منتصفه فأصابه ضرر، وربما كره المكان والدين. فكانت الحكمة في أن يُترك حتى ينتهي، ثم يُنظف المكان، ثم يُبين له بعد ذلك. وفي هذه الحادثة منهجٌ تربويٌّ كامل: أن تقدّم تقليل الضرر على تسجيل الموقف، وأن تُقدّم كسب الإنسان على الانتصار لنفسك.

وهو حاملٌ أمانة

وقد صلّى ﷺ بالناس يوماً وهو يحمل على عاتقه ابنةَ بنته زينب، وهي أمانة. يصلي بالناس والطفلة على كتفه. فإذا ركع وضعها، وإذا قام حملها. هل تتخيل صف المصلين خلفه، وهم يرون إمامهم وعلى عاتقه طفلة صغيرة؟ كم من قلبٍ تغير في تلك اللحظة وقال: إن ديناً يُدخل الصغيرة في الصلاة لا يمكن أن يكون دين قسوة!

كان النبي ﷺ يصلي وهو حاملٌ أمانة بنت زينب بنت رسول الله ﷺ، فإذا سجد وضعها، وإذا قام حملها.

— متفق عليه عن أبي قتادة رضي الله عنه

وجاء الأقرع بن حابس، وهو من سادات العرب، فوجد النبي ﷺ يقبل الحسن بن علي. فتعجب الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً. وهذه الجملة في فهم ليست نفراً، بل هي ما كان معروفاً من جفاء بعض أهل الجاهلية، الذين رأوا في العاطفة ضعفاً. فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال قولةً كأنها قانونٌ كوني:

«من لا يرحم لا يُرحم».

— متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه

بين الهيبة والمحبة

لكن لهذا المجلس وجهاً آخر. فهؤلاء الناس الذين يحبونه ويجلس بينهم بلا حجاب كانوا في الوقت نفسه يهابونه. والقرآن يعلمهم أدب الحضرة:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ
وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ
أَعْمَلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾

سورة المجرات : ٢

فمن جمع بين ﴿لَنْتَ لَهُمْ﴾ و﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾ فقد جمع بين طرفين قلما يجتمعان: ألين الناس وأهيبهم. يرى الأعرابي يخاطبه بصوت مرتفع فلا يغضب، ويرى الصحابي الجليل يخفض صوته عنده حتى يكاد لا يُسمع. وإنما يجتمع الأمران في رجل واحد إذا كانت ليونته من رحمة لا من ضعف، وهيئته من صدق لا من سلطان. وهو ما شهد به القرآن في وصفه:

فِيمَا رَحْمَةً مِّنَ اللَّهِ لَنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ
الْقَلْبِ لَآنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ
وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ
اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾

سورة آل عمران : ١٥٩

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ
حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾

سورة التوبة : ١٢٨

وهذان النصفان لو وُضعا في ميزان الفلسفة لقالا: الرحمة ليست ضعفاً في القيادة بل شرطها، ومن غابت عنه الرحمة انفض الناس من حوله مهما بلغت قوته. وقد رأى الصحابة هذا الميزان بأعينهم: رأوه عزيزاً عليه ما عنتوا، حريصاً عليهم، حريصاً على هدايتهم، رحيماً بهم.

الفصل الخامس

يوم الجمعة ويوم العيد



يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا
إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ

للأسبوع في حياة النبي ﷺ ذروة عالية هي يوم الجمعة، وللسنة ذروتان هما العیدان. وفي هذين اليومين يتحول المسجد من بيت صلاةٍ إلى ميدان اجتماع، وتحول المدينة كلها إلى جماعةٍ واحدة تصغي لصوتٍ واحد. ومن أراد أن يرى النبي ﷺ في ذروة حضوره الاجتماعي فلينظر إليه في هذين اليومين.

خير يوم طلعت عليه الشمس

«خير يومٍ طلعت عليه الشمس يوم الجمعة: فيه خُلِقَ آدَمُ، وفيه أُدْخِلَ الجنة، وفيه أُخْرِجَ منها».

— رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه

«غُسل يوم الجمعة واجبٌ على كل محتلم».

— متفق عليه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه

ويبدأ الناس يومهم بالاغتسال، وتتهيأ المدينة. أما هو ﷺ فكان يُحدّث أصحابه عن ساعةٍ في هذا اليوم لا يوافقها عبدٌ مسلمٌ قائمٌ يصلي يسأل الله شيئاً إلا أعطاه، وأشار بيده يقلّلها. ولم يعينها لهم، لتبقى الساعة سرّاً بين العبد وربّه، يقف كل مصلٍّ في كل لحظةٍ من الجمعة كأنها قد تكون هي.

وفيه ساعةٌ لا يوافقها عبدٌ مسلمٌ، وهو قائمٌ يصلي، يسأل الله شيئاً، إلا أعطاه إياه. وأشار بيده يقلّلها.

— متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه

إذا خطب

فإذا ارتقى المنبر رأى الناس منه ما لم يروه في الأيام العادية. جابر بن عبد الله يصف ذلك وصف شاهدٍ مأخوذ:

كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرّت عيناه، وعلا صوته، واشتدّ غضبه، حتى كأنه منذر جيشٍ يقول: صبحكم ومساكم. ويقول: «أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد».

— رواه مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما

أَيُّ مشهَدٍ هذا؟ النبي العظيم هادئ الطبع في البيت، رحيمٌ مع الصغار، يخطب فتحمّر عيناه ويعلو صوته كأنه ينذر جيشاً يوشك أن يداهمهم صباحاً أو مساءً. ليس في هذا تناقض. فالذي يرى الخطر الحقيقي على أمته لا يتكلم بصوت الهمس، والرحيم الذي يعلم أن في الأمر ناراً وجنةً لا يجد في نفسه مجالاً للتهوين. وهذه هي الغيرة الصادقة، وهي ليست غضباً على الناس بل خوفاً عليهم.

إِذْ انْفَضُّوا إِلَيْهَا

وفي يوم من أيام الجمعة جاءت عيرٌ إلى المدينة، قافلة تجارية فيها طعام. وكان النبي ﷺ قائماً يخطب. فسمع الناس بقدموها فانفضّ الناس من المسجد إليها، حتى لم يبق معه إلا اثنا عشر رجلاً. هكذا يرويه جابر:

بينما نحن نصلي مع النبي ﷺ إِذْ أَقْبَلَتْ عِيرٌ تَحْمِلُ طَعَامًا، فَالْتَفَتُوا إِلَيْهَا حَتَّى مَا بَقِيَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا.

— متفق عليه عن جابر رضي الله عنه

ولننظر الآن بأعين الذي كان واقفاً. على المنبر النبي العظيم يرى الناس يتفرقون عنه، واحداً إثر واحد، إلى طعامٍ هم في أمْس الحاجة إليه، ويبقى معه اثنا عشر. ماذا يمكن أن يخطر في نفسه؟ لا نعلم، فإن الرواة لم يرووا لنا ما في صدره. لكن القرآن نزل بما يُعلّم الناس بعد ذلك الأدب الذي لا يُنسى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ
فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن
كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي
الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا
لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجْرَةً أَوْ لَهْوًا آنَفُؤْا
إِلَيْهَا وَتَرَكُوا قَابًا قَلًا مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهِوِ وَمِنَ
التِّجْرَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ ﴿١١﴾

سورة الجمعة : ٩-١١

فإنها أيام عيد

أما العيد فيوم آخر. كان النبي ﷺ لا يخرج يوم الفطر حتى يأكل تمراتٍ
ويأكلهن وتراً. ثم يخرج إلى المصلّى، ويبدأ بالصلاة قبل الخطبة، وكان يرجع
من طريق غير الطريق التي ذهب منها، كأنه يريد أن يزور بيوت المدينة كلها
بفرحه، وأن يسلم على وجوه أكثر، وأن ينشر في أكثر من طريق بشرى هذا
اليوم.

كان النبي ﷺ يوم العيد يخالف الطريق.

— رواه البخاري عن جابر رضي الله عنه 36

وكان يحرص أن يشهد العيد أهل المدينة جميعاً. قالت أم عطية رضي الله عنها: أمرنا رسول الله ﷺ أن نُخرج في العيدين العواتق وذوات الخدور، فيشهدن الخير ودعوة المسلمين. أي أنه ما أراد أن يُحرّم من بهجة العيد أحدٌ، لا شابةً ولا صغيرة، ولا من لزمت بيتها حياءً.

«إن لكل قوم عيداً، وهذا عيدنا».

— متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

الفصل السادس

مع الصغار



الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

وإذا خرج من المسجد، أو عاد من سفره، أو مرّ بالأزقة بين بيوت الأنصار، فن أول ما يلقاه الصغار. فهم لا يعرفون أنه نبيُّ ولا قائد، وإنما يعرفون أنه يعامل الأطفال كأنهم ناس. وهنا يظهر ما لا تُظهره خطبة ولا غزوة.

يسلم على الصبيان

أن رسول الله ﷺ مرّ على صبيان فسلم عليهم. وقال أنس: وكان النبي ﷺ يفعلُه.

— متفق عليه عن أنس رضي الله عنه

السلام على الصغير شيء يظنه الكبار صغيراً، ويراها الصغار عظيماً. أي صبيّ يسلم عليه من رجلٍ كبير يشعر أنه صار إنساناً. وهذه التحية الصغيرة هي التي تبني الثقة في قلب الطفل قبل أن يبني أبوه أو معلمه أي شيء آخر.

وكان لأنس أخٌ صغير يُكنّى أبا عمير، وكان له طائرٌ صغير يلعب به، وهو النُّغَيْر. فمات الطائر، فحزن الصبي. وكان رسول الله ﷺ إذا جاءهم يسأله مازحاً:

«يا أبا عمير، ما فعل النُّغَيْر؟»

— متفق عليه عن أنس رضي الله عنه

النبي العظيم تحمل كنفه أمةً، وفي ذهنه أمرُ الله والدنيا والآخرة، ثم يتذكر أن في بيتٍ من بيوت الأنصار صبيّاً مات طائرُه، فيسأله عنه. وهذا السؤال الصغير، المازح، العالم بالحنن الصغير، هو أروع ما في هذه الصورة. وقد استنبط العلماء من هذا الحديث فوائد كثيرة، لكن الفائدة الأولى أن النبي ﷺ لم يرَ حزن الطفل شيئاً تافهاً. هو ينظر إلى الحزن بعين صاحبه، وحزن طائرٍ عند صبيٍّ يعدل حزن الكبار عند الكبار.

أتجوّز في صلاتي

وحتى في الصلاة، وهي أعلى لحظات الجد، لم يغب عنه صوت طفلٍ يبكي:

«إني لأدخل في الصلاة وأنا أريد أن أطيلها، فأسمع بكاء الصبي، فأَتَجَوّزُ في صلاتي مما أعلم من شدة وجد أمّه من بكائه.»

— متفق عليه عن أنس رضي الله عنه

يريد أن يطيل الصلاة، فيسمع بكاء الصبي في الصفوف، فيعلم ما في قلب أمه من القلق، فيختصر. هنا لا يتعارض الخشوع مع الرحمة، لأن الرحمة عنده من العبادة. ومن ظن أن العبادة تقتضي أن تغلق قلبك على من حولك فقد أخطأ طريقها. وقد بلغ هذا المعنى مبلغه في أنه ﷺ يختصر ما أراد إطالته لأن قلب أم في الصفوف يخاف على ولدها.

في حجره

وأما الحسن والحسين فقد كانا في حجره من صغرهما. يروي أسامة بن زيد:

كان رسول الله ﷺ يأخذني فيُقعدني على فخذه، ويُقعد الحسن على فخذه الأخرى، ثم يضمّنا ثم يقول: «اللهم ارحمهما فإني أرحمهما».

— رواه البخاري عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما

وكان يقول عن الحسن: «اللهم إني أحبه فأحبه، وأحب من يحبه»، وروي أنه خطب يوماً والحسن إلى جانبه، فنظر إليه مرة وإلى الناس مرة وقال: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين». ففي عين الأب الذي يداعب طفلاً نظراً إلى مستقبل أمة. وليس في الحنان ما يحجب بُعد النظر، ولا في بُعد النظر ما يقتل الحنان.

تمرّة لكل بنت

وكان يوصي الناس بالبنات وصيةً لم يعهدا العرب من قبل. جاءت عائشة امرأة معها ابنتان تسأل، فلم تجد عندها⁴⁰ غير تمرّة واحدة، فأعطتها إياها، فشقتّها

المرأة بين ابنتيها ولم تأكل منها، ثم قامت فخرجت. فدخل النبي ﷺ فحدثته عائشة، فقال:

«من ابتلي من هذه البنات بشيء، فأحسن إليهنّ، كنّ له ستراً من النار».

— متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

وفي رواية مسلم أنه قال في المرأة التي شقت التمرة: «إن الله قد أوجب لها بها الجنة، أو أعتقها بها من النار». ثمرة واحدة، لكنها شقت نصفين حتى لا تحرم بنتٌ منها ولا تأكل الأم. وهذه هي التي تزن في ميزان الله حين تحفّ جبال: نصف ثمرة بين صغيرتين، من قلبٍ مستعدٍّ أن يجوع.

ومن عرف الصغار بهذه العين عرف لماذا كانت أيامه كلها مشدودةً إلى الرحمة. فإن الرحمة التي لا تمرّ على الصغير لا تكتمل. والصغير هو أول امتحانٍ لمن يزعم الرحمة، لأنه لا يملك ما يردّ به المعروف، ولا يعرف المجاملة، وإن لم يجد حناناً صادقاً فلا يندفع. وقد نجا النبي ﷺ من هذا الامتحان كل يوم.

الفصل السابع

الخمسون ليلة



وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا

كان الصيف قد بلغ ذروته في المدينة، والحرّ يضرب الحرّة ضرباً، والنخيل مثقلٌ بثمره الذي طاب، والظلال تدعو أصحاب البيوت إلى الجلوس. وفي هذا الجو بالذات أعلن رسول الله ﷺ الخروج إلى تبوك، وكان لا يريد غزوةً إلا ورى بغيرها، فبين للناس هذه المرة وجهتهم لبعد السفر وشدة الزمان وكثرة العدو. وفي أزقة المدينة ترى الرجال يشدون الرحال، والنساء يجهزن الزاد، وصدقات الأغنياء تُساق إلى المسجد، والفقراء الذين لا يجدون ما يحملهم يعودون وأعينهم تفيض من الدمع حزناً.

وليس كل يومٍ في المسجد يومَ رحمةٍ ظاهرة. ففي المدينة رجلٌ اسمه كعب بن مالك، شاعرٌ من الأنصار، شهد العقبة، وما تخلف عن غزوةٍ مع رسول الله ﷺ إلا في بدر ولم يكن عتابٌ على من تخلف عنها. لكنه تخلف في غزوة تبوك، في صيفٍ حارٍّ وسفرٍ بعيدٍ وثمارٍ قد طابت. لم يكن له عذر. كان صحيحاً

قويًا غنيًّا، وكان كلما همَّ بالخروج قال: أنا قادر على المحاق، حتى فات الأمر
وذهب الجيش.

ثم عاد رسول الله ﷺ من تبوك، وجاء المتخلفون يعتذرون ويحلفون، فقبل
منهم علانيتهم وبايعهم ووكل سرائرهم إلى الله. وجاء كعب فسلم، فتبسم تبسم
المغضب. وهنا يبدأ أعجب ما في الرواية: لقد كان كعب يملك الحجج. قال
لنفسه: سأخرج من سخطه بعذر، وقد أعطيت جدلاً. لكنه لما جلس بين يدي
النبي ﷺ تبدد كل ذلك، وقال الحقيقة عارية: والله ما كان لي عذر، ما كنت
قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك.

أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك.

— رواه البخاري ومسلم عن كعب بن مالك رضي الله عنه

المدينة تصمت

وصدر الأمر: لا يكلم أحد هؤلاء الثلاثة. ومرّت الأيام. وهنا يقف المحلل أمام
ظاهرة لا نظير لها في التاريخ: عقوبةٌ بلا قيد. لا قيد على الأجساد ولا سجن ولا
تعذيب. الطرق مفتوحة والسوق مفتوح والمسجد مفتوح، لكن الإنسان صار
في وسط الناس غريباً. وعبر عن ذلك القرآن بعبارة لا يعلو عليها وصف:

وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ
بِمَا رَحَبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُوا أَنَّ لَا مَلْجَأَ
مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ
التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾

سورة التوبة: ١١٨

يروى كعب: فكنْتُ أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد. وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرك شفّتي برّد السلام أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلتُ على صلاتي أقبل إليّ، وإذا التفتُ نحوه أعرض عني.

اقرأ هذه الجملة الأخيرة مرتين. إن رجلاً يقف في الصلاة بعيداً ويسرق النظرة إلى وجه النبي ﷺ، كما يسرق الطفل نظرةً إلى وجه أبيه الغاضب. والنبي ﷺ يُعرض عنه إذا التفت. وليس هذا إعراض قسوة، فهو حدٌّ وتأديبٌ بأمر الله إلى أن يحكم الله، وكلما ضاقت الدائرة على كعب قُرب الفرج، فإن من لم يُبالِ بالإنسان لم يُعاقبه بهذا الحرص كله على إصلاحه.

ثم جاء اختبارٌ آخر. تسلّم كعبُ رسالةً من ملك غسان، يقول فيها: بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك. تحيّل رجلاً منبوءاً في مجتمعه، ثم يُعرض عليه المأوى والمال والمكانة. ماذا قال؟ قال: وهذا أيضاً من البلاء. ثم تيمّم بالرسالة التّور فسجرها به. أحرقت الإغراء

وهو أشد ما يكون حاجةً إليه. وهذا الذي يعرفه من يفهم النفس: إن أخطر لحظات الانهيار ليست حين يُشتدّ العذاب، بل حين يُفتح باب الخروج الخاطيء.

وبعد أربعين ليلة جاءه رسول النبي ﷺ يأمره أن يعتزل امرأته. قال: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها ولا تقربها. فقال لامرأته: الحقّي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر. وتمت خمسون ليلة.

صوتٌ من الجبل

وصلّى كعب الفجر في الليلة الخمسين على ظهر بيتٍ من بيوته، جالساً على الحال التي ذكر الله، قد ضاقت عليه نفسه وضاقت عليه الأرض بما رحبت. فسمع صوتاً من فوق جبل سلع: يا كعب بن مالك، أبشراً!

خرّ ساجداً، وعرف أن الفرج قد جاء. وقد كان رسول الله ﷺ أعلن توبة الله على الثلاثة بعد صلاة الفجر. فانطلق الناس يبشرونه، وركض رجلٌ على فرس، وصعد آخر على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس. ونزع كعب ثوبيه فكساهما للذي بشره، ولبس ثوبين استعارهما. ثم توجه إلى المسجد يتلقاه الناس فوجاً فوجاً يهتفونه بتوبة الله.

فلما دخل المسجد، قام إليه طلحة بن عبيد الله يهرول، فصاحفه وهنأه. يقول كعب: والله ما قام إليّ رجلٌ من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة. أيّ سنةٍ كانت قد مرّت على أن يجلس الإنسان بين الناس خمسين ليلة فلا يصاحفه أحد، ثم تكفيه في النهاية يدٌ واحدة؟ ثم وصل إلى رسول الله ﷺ:

فلما سلمتُ على رسول الله ﷺ قال، وهو يبرق وجهه من السرور:
«أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك». وكان رسول الله ﷺ إذا
سُرّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه.
— رواه البخاري ومسلم عن كعب بن مالك رضي الله عنه

وهذا مشهدٌ أخير يجمع الفصل كله: في الفجر بين يدي الله، وفي الصباح بين
أصحابه، وفي لحظة الفرح وجهٌ يضيء كقطعة قمر. لقد كان إذا غضب جفا
جفاءً مؤدّباً لا يُخرج عن الحق، وإذا فرح فرحاً تعلو به وجوه الناس، وفي
الحالين لم يكن يتحرك إلا بما يريد الله. وأسرع كعب في أن يعلن أن توبته
تقتضي أن يتخلى عن ماله كله صدقة، فقال ﷺ: «أمسك عليك بعض مالك فهو
خيرٌ لك». وهكذا حتى في لحظة التوبة الكاملة كان النبي ﷺ يوازن بين الغلو
والتقصير.

وقال كعب بعد ذلك إنّ الله إنما أنجاه بالصدق، وإن من توبته ألا يحدث إلا
صدقاً ما بقي. وما بقي يكفي، فلا كان الذي تخلف عن الجيش أصدق من
الذين خرجوا في وجه الريح، ولا أنفع منه في تعليم الناس بعد ذلك أنّ الكذب
قد يبرئ ساعةً ويُشقي عمراً، وأنّ الصدق قد يُوجع يوماً ثم ينقذ صاحبه إلى
الأبد.

الفصل الثامن

في الحرب



وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ

إذا قلنا إن النبي العظيم ﷺ كان رحمةً خالصةً، فلا يجوز أن نخفي أنه قاد الجيوش وواجه السيوف، ولا أن نلبسه رحمةً ناقصة لا تعرف الحرب. فالحرب في حياته ﷺ لم تكن غاية ولا هوية. كانت جزءاً من واقع فرض عليه فرضاً: شعبٌ مهجَرٌ يطارد في أرضه الجديدة، وأعداءٌ لم يكفوا عن التآمر. والنظر المنصف لا يبدأ بالمعارك بل بالقواعد التي سبقتها، فمن قواعده تُعرف روحه.

قبل أن يتحرك الجيش

كان ﷺ إذا أمّر أميراً على جيشٍ أو سريةٍ أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال:

«اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تَغْلُوا ولا تَغْدِرُوا ولا تُمَثِّلُوا ولا تقتلوا وليدًا».

— رواه مسلم عن بريدة رضي الله عنه

لا غلول: أي لا تأخذوا من الغنيمة شيئاً قبل قسمتها. لا غدر. لا تمثيل بالجثث. لا قتل للأطفال. وروى ابن عمر أنه وجدت امرأةً مقتولة في بعض مغازي رسول الله ﷺ، فأنكر ذلك:

فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان.

— متفق عليه عن ابن عمر رضي الله عنهما

هذه القواعد تُقال في عصرٍ كانت فيه الحروب لا تعرف حدًا. وهي كافية لأن نعرف أن السيف كان عنده محكومًا بميزان، وأن القلب الذي يبدأ يومه بالترتيل لم يتبدّل في ساحة القتال.

بدر: يَدان مرفوعتان

وفي بدر، أولى معارك الإسلام الكبرى، كان المسلمون نحو ثلاثمئة وبضعة عشر رجلًا أمام نحو ألف. فلما سوى الصفوف عاد إلى عريشه، فاستقبل القبلة ومدّ يديه. يروي عمر بن الخطاب:

فاستقبل نبيُّ الله ﷺ القبلة، ثم مدَّ يديه فجعل يهتف بربه: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبد في الأرض». فما زال يهتف بربه مادًّا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأثاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك.

— رواه مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه

وهنا تكتمل اللوحة كلها: في الأفق جيشان، وفي العرش النبي العظيم يمد يديه إلى السماء حتى يسقط الرداء عن كتفيه ولا يشعر، وصاحب يلتزمه من ورائه ويضع الرداء على منكبيه ويهدّته. أين القائد الذي يتقمص دور الجبار؟ ليس هنا. هنا عبدٌ مضطّرٌّ يتضرع. ونزل القرآن يذكرهم بما حدث:

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ

مِّنَ الْمَلَكَةِ مُرَدِّفِينَ ﴿٩﴾

سورة الأنفال : ٩

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِدَرٍّ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ

تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾

سورة آل عمران : ١٢٣

أحد: أشد الأيام

وفي أحد انقلب الميزان. أصابت المسلمين هزيمةٌ بعد نصر، وكُسرت ربيعة النبي ﷺ وشُجَّ وجهه. وروى أنس ما رآه:

شُجَّ النبي ﷺ يوم أحد وكُسرت ربيعته، فجعل يمسح الدم عن وجهه ويقول: «كيف يُفْلح قومٌ شَجُوا نبيهم وكسروا ربيعته وهو يدعوهم إلى الله؟» فأَنْزَلَ اللهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

— رواه مسلم عن أنس رضي الله عنه

جملةٌ تحمل توجعاً بشرياً لا يُنكره أحد، وتحمل درساً ربانياً في الحين نفسه: ليس لك من الأمر شيء. هداية القلوب بيد الله، وليس على الداعي إلا البلاغ. وكأن الله يحفظ قلبه من أن يتحول الوجدع إلى دعاء عليهم. وسألته عائشة بعد ذلك: هل أتى عليك يومٌ كان أشد من يوم أحد؟ فذكر يوم الطائف، حين عرض نفسه على ثقيف فردّوه بالحجارة، وقال إنه لم يستفك من همه إلا وهو بقرن الثعالب، فإذا ملك الجبال يناديه: إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين. فإذا قال؟

«بل أرجو أن يُخرج الله من أصلاهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً».

— متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

هذه هي الجملة التي تهدم كل قراءة تجعل الحرب عنده ثأراً. النبي العظيم عرض عليه الانتقام الكامل من أعدائه بكلمة واحدة، فرفض. فمن كانت هذه نفسه لم تتسع لحقدٍ ولو أُعطي أسبابه.

الخنديق: جمرٌ على البطن

وحين تحزّبت الأحزاب على المدينة، لجأ المسلمون إلى خندقٍ يحفرونه، وكان الجوع مقيماً. يروي البراء رضي الله عنه ما رآه:

رأيتُ رسول الله ﷺ يوم الأحزاب ينقل التراب، وقد وارى التراب
بياض بطنه.

— رواه البخاري عن البراء رضي الله عنه

وكان يرتجز مع أصحابه وهم يحفرون. كانوا يقولون: والله لولا الله ما اهتدينا، ولا تصدّقنا ولا صلّينا. وكان هو يرفع صوته بآخر الأبيات: أيّنا، أيّنا. ويقول جابر بن عبد الله إنه رأى بالنبي ﷺ خمصاً شديداً، أي جوعاً، وإنه قام وبطنه معصوب بحجر، ولبثوا ثلاثة أيام لا يذوقون ذواقاً. ثم أطعم بشاة صغيرة وصاع من شعير ألفاً أو نحوهم.

وكان في الخندق ما وصفه القرآن وصفاً قلّ أن يبلغ مثله:

إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ
الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا^{١٠}
﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا



سورة الأحزاب : ١٠-١١

وكانت الليالي باردة والريح عاتية، والجيش من فوقهم ومن أسفل منهم. وفي هذه اللحظة بالذات، حين بلغت القلوب الحناجر، رأى الناس أقوى ما في النبي ﷺ: حفرٌ مع الحافرين، وجوعٌ مع الجائعين، وبشارةٌ بالفتح لا تبدل. ثم جاء النصر:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ
جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾

سورة الأحزاب : ٩

خير: ليلة لا ينام فيها أحد

وقبيل فتح خيبر قال ﷺ كلمةً أَلقت في صدور المعسكر ما أَلقت: «لأُعطينَ هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله». قال سهل بن سعد: فبات الناس يذوكون ليلتهم أيهم يُعطاهَا. أي باتوا يخوضون في أمرهم ويتساءلون.

وهذا مشهدٌ تُدرِكُه العين قبل أن يصفه القلم: معسكرٌ كبير في ليلة الحرب، آلاف من الرجال مستيقظون لا لأنهم خائفون من الموت، بل لأنهم يتمنون شرفاً لا يعرفون لمن سيكون. كل رجلٍ منهم يتقلب على فراشه وفي نفسه سؤالٌ واحد. وأصبح الناس يغدون على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يُعطاهَا، فقال: «أين علي بن أبي طالب؟» فقيل: هو يشكي عينيه. فأرسلوا إليه، فتفل في عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع، وأعطاه الراية. وقال علي: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال:

«أنفذ على رِسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حُمُر النعم».

— متفق عليه عن سهل بن سعد رضي الله عنه

انظر إلى الأولوية: قائدٌ يرسل رجلاً إلى حصن، ويقول له: على رِسلك، لا تعجل. ادعهم أولاً. فإن هداية رجل واحد أعزّ عليه من أنفس مال العرب. وإنه لمن الطريف أن نلاحظ أن أعظم ما عنده في الحرب أن يكسب إنساناً لا أن يكسر إنساناً.

ولو وقفنا هنا وقفة التحليل لوجدنا في معارك النبي ﷺ ثلاث قواعد لا تتخلف. الأولى أن الدعاء عنده يسبق السلاح ولا يُغني عنه: فهو يمدّ يديه في العرش بعد أن سوى الصفوف. والثانية أن الحرب عنده وسيلةٌ محدودة، فلا يُقتل فيها من لا يقاتل، ولا تُترك الدعوة قبلها. والثالثة أن القائد أول من يتحمل الخطر وآخر من يأخذ الراحة، كما شهد له من عاش معه. ومن فهم هذه القواعد فهم لماذا لم تُنتج حروبه ما تنتجه حروب الفاتحين من خرابٍ وحقد، بل أنتجت أمماً دخلت في دين الله أفواجاً.

حنين: ثابتاً على بغلته

وفي حنين، دخل المسلمون المعركة وهم اثنا عشر ألفاً، فأعجبهم كثرتهم كما ذكر القرآن. ثم انقلب الأمر وفرّ الناس، حتى لم يبق مع النبي ﷺ إلا نفرٌ قليل. والقرآن يقول:

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ
 أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ
 الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ
 اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا
 لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ

﴿٢٦﴾

سورة التوبة : ٢٥-٢٦

وفي هذه اللحظة حين تفرق الجيش عنه، لم يتراجع. كان على بغلته البيضاء،
 يتقدم نحو العدو وهو يقول:

«أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب».

— متفق عليه عن البراء رضي الله عنه

وقد كان الأسلم أن يخو بنفسه، لكنه ثبت، وأعلن نسبه ومقامه ليعلم الجميع أنه
 هنا لم يهرب. وكتب البراء عن ذلك اليوم أصدق شهادة يمكن أن يقدمها
 جندي عن قائده:

كما والله إذا احمرّ البأس نتقي به، وإن الشجاع منا للذي يحاذي به،

يعني النبي ﷺ.

— رواه مسلم عن البراء رضي الله عنه

نتقي به. أي أن أشجع الناس كان يقف خلف النبي ﷺ ويحتمي به، لا لأنه يُخاف عليه وحده، بل لأن الأقرب إلى العدو كان هو. أما من يقول إن النبي العظيم ﷺ رحمةٌ وحسب، فقد غفل عن حقيقة أن أعلى الرحمة ما اجتمع في قلب الأشجع. فالجبان رحيمٌ حين لا يستطيع، أما الرحيم الذي يستطيع فهو الذي يُسمّى كريماً.

الفصل التاسع

في السفر



سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ

وإذا خرج النبي ﷺ من المدينة في سفر، تحوّلت أيامه إلى طريق. لا بيت ولا مسجد، بل خيمةٌ ورحلٌ ومنزلٌ جديد كل ليلة. وهنا تبدّل علاقة الإنسان بكل ما حوله: بالماء والطعام والصحبة والتعب. وفي السفر، كما قيل، يُعرف الرجال.

«السفر قطعةٌ من العذاب، يمنع أحدكم طعامه وشرابه ونومه، فإذا

قضى نهمته فليعجل إلى أهله».

— متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه

وكان يقول هذا وهو أكثر الناس سفرًا في سبيل الله. لا يُزيّن السفر لأصحابه ولا يُخفي مشقته. وقلّما كان يخرج إلا يوم الخميس، كما قال كعب بن مالك. وكان إذا استوى على بعيره خارجًا كبر ثلاثًا ثم قال ما رواه ابن عمر:

«سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون.
اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البرّ والتقوى، ومن العمل ما ترضى.
اللهم هون علينا سفرنا هذا واطوِ عنا بعده...»
— رواه مسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما

لَتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ
عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ
مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾

سورة الزخرف: ١٣-١٤

فأول ما يصنعه في رحلته أن يذكر نفسه بأنه إنما يركب ما سخر له، لا ما اكتسبه
بقوته. والبعير الذي تحته ليس ملكاً له، بل نعمة من الله يسخرها له. وكل
خطوة في الطريق تبدأ بحمد المنعم، وتُختم بالرجوع إليه.

ذهب المفطرون اليوم بالأجر

وفي سفرٍ من أسفاره كان بعض الصحابة صائمين وبعضهم مفطرين، والحرّ
شديد. ولنسمع أنساً يصف ما جرى:

كما مع النبي ﷺ في السفر، فنّا الصائم ومنا المفطر. فنزلنا منزلاً في يومٍ حارٍّ، وأكثرنا ظلاً صاحبُ الكساء، ومنا من يتقي الشمس بيده. فسقط الصوَّام، وقام المفطرون فضربوا الأبنية وسقّوا الركاب، فقال رسول الله ﷺ: «ذهب المفطرون اليوم بالأجر».

— متفق عليه عن أنس رضي الله عنه

أي ميزانٍ هذا الذي يقيس به؟ ليس عنده أن الصائم أعلى درجة من المفطر في كل حال. إنما ينظر إلى من خدم إخوانه حين احتاجوا إلى الخدمة. وفي سفرٍ حارٍّ، حين يسقط الصائم من التعب، فإن الذي ضرب الخيمة وسقى الدابة قدّم لأصحابه ما لا يقدمه صومٌ يُثقل على صاحبه. وهو بذلك ينبّه إلى أن العبادة قد تكون في العمل للناس لا في الانقطاع عنهم.

حيثما توجّهت به

وقد رُوي أنه كان في السفر يصلي النافلة على راحلته حيثما توجّهت به، فلا ينزل ولا يتأخر عن مسيره:

كان رسول الله ﷺ يُسبّح على الراحلة قبل أي وجهٍ توجه، ويوتر عليها، غير أنه لا يصلي عليها المكتوبة.

— متفق عليه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما

أي أنه ما أراد أن يترك قيام الليل لأنه مسافر، ولا أن يوقف القافلة لأجل نافلة. هو يجمع بين السير والصلاة، فتصير الصحراء كلها مصلّىً، والراحلة

سجادة، والجهة التي يتجه إليها طريقٌ إلى الله أيًّا كانت.

آيئون تائبون

وإذا رجع من سفره بدأ بالذكر قبل أن يعود إلى الناس. فكان إذا قفل من غزوٍ أو حجٍّ أو عمرة كبرَّ على كل شَرَفٍ من الأرض ثلاث تكبيرات، ثم قال:

«لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، آيئون تائبون عابدون لربنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده».

— متفق عليه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما

وما إن يصل المدينة حتى يدخل المسجد فيصلي ركعتين قبل أن يدخل بيته، كما حدَّث كعب بن مالك. فقبل أن يرى أهله يقف بين يدي ربه، كأنه يقول: لقد عدتُ سالمًا، والله الفضل. وكان ينهى الرجل أن يطرق أهله ليلاً إذا طالت غيبته، حتى لا يفاجئهم على غير استعداد، وكأنه يريد لعودة المسافر أن تكون فرحةً لا مفاجأة.

إذا أطال أحدكم الغيبة فلا يطرق أهله ليلاً.

— متفق عليه عن جابر رضي الله عنه

الفصل العاشر

يوم حراء



أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ

وفي حياته ﷺ أيامٌ لا تشبه سائر الأيام، لأن التاريخ نفسه انعطف فيها. أيامٌ لو حُذفت من عمره لما بقي من الحكاية شيء. وقد جمعنا في هذا الباب أربعة منها: يوم حراء حيث بدأ الوحي، ويوم الهجرة حيث تحوّل المسار، ويوم الفتح حيث دخل مكة بعد أن أُخرج منها، ويوم عرفة حيث ألقى خطبته الجامعة وقد قارب العمل أن يكتمل. ولنبدأ من أولها، ومن أعلى الجبل.

النبي العظيم يعتزل

قبل أن يُوحى إليه بزمّن كان النبي العظيم، وقد بلغ الأربعين من عمره، يصعد جبلاً قريباً من مكة، في شعابٍ يقال لها حراء، فيدخل غاراً صغيراً لا يتسع إلا لمن يجلس فيه أو يصلي. تحته مكة بأصنامها وأسواقها وتجارها وأحلافها، وفوقه السماء وحدها. لم يكن قد نزل عليه كتاب، ولم يكن قد سمع باسم الرسالة. وإنما

كان في قلبه شيءٌ لم يسمّه: ضيقٌ بما حوله، وحنينٌ إلى ما لا يعرف. تحدّثنا عائشة رضي الله عنها كيف بدأ ذلك:

أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. ثم حُبَّ إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنّث فيه، وهو التّعبّد، الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزوّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها.

— متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

وهذا هو الترتيب الذي ينبغي أن يتأمّله العقل: رؤيا صادقة كفلق الصبح، ثم حبُّ الخلوة، ثم الليالي ذوات العدد. فلم يأتِ الوحي بغتةً على نفسٍ غافلة. كانت النفس تُهَيِّأ على مهل، كما يُهَيِّأ الفجر قبل الشمس. وهذا المنهج الإلهي في إعداد الرجال لما هو أعظم منهم.

اقرأ

ثم جاء اليوم. وكانت الليلة كغيرها من الليالي في غارٍ لا يعلم الناس أن فيه النبي العظيم. وفجأةً، من غير مقدمة، وقف الملك أمامه:

فجاءه الملك فقال: اقرأ. قال: «ما أنا بقارئ». قال: فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ. قلت: «ما أنا بقارئ». فأخذني فغطّني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ. فقلت: «ما أنا بقارئ». فأخذني فغطّني الثالثة، ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾.

— متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾

سورة العلق : ١-٥

وللعقل هنا وقفة. فإن أول كلمة في آخر الكتب التي أنزلها الله على الأرض هي: اقرأ. وقد قيلت للنبي العظيم ﷺ وهو أُمِّيٌّ، لم يخطّ كتاباً ولم يقرأه، في أمة لم يكن القراءة والكتابة من شأنها. ومع ذلك افتتح الوحي بأمر القراءة، فصار الأمي الذي لا يقرأ انخط معلماً للأمم أن تقرأ. وتأمل الفرق بين القراءة التي طلبها الله والقراءة التي نعرفها: ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾. فهي قراءة لا تفصل عن الله، وعلم لا يكسب الإنسان غروراً، لأنه يبدأ باسم الذي خلق، ويعلم الإنسان ما لم يعلم.

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال: «زملوني، زملوني». فزملوه حتى ذهب عنه الروع. فقال لخديجة، وأخبرها الخبر: «لقد خشيتُ على نفسي». — متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

انظر كيف رجع. لم يرجع النبي العظيم مزهواً بأنه اختير، ولا منادياً في الناس: جئتكم بالخبر. رجعت منه روحٌ ترتجف، يطلب أن يُعطى، ويقول إنه خشي على نفسه. وهذه الصورة الأولى للنبوة هي أصدق ما يُقدّم عن صدقها: فلو أن رجلاً اختلق الرسالة لجاء متباهياً. أما هذا فجاء خائفاً، لأن ما رآه أعظم من احتماله.

كلا والله

وتقف خديجة. لم تقل له: اهدأ، ولم تُجادله في الغيب، ولم تسأله ما الذي رأى. نظرت في حياته هو، كما تنظر في كتابٍ تعرف كل صفحة فيه منذ خمسة عشر عاماً، وقالت:

«كلا، والله ما يُحزيك الله أبداً. إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق». — متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

وفي هذا دلالةٌ كبيرة على أن الذي يُحكم له هو سيرته لا دعواه. نخديجة لم تحتج إلى دليلٍ خارج النبي العظيم نفسه. حياته هي الدليل. ونحس صفاتٍ تُغني عن كل برهان: يصل الرحم، ويحمل عن الضعيف ما لا يطيق، ويعطي من لا يملك، ويكرم الغريب، ويقف مع الحق إذا نزلت به النوازل. فمن كانت هذه حاله لا يمكن أن يُخذل. وهنا تعلّنا خديجة أن أعمق إيمانٍ بإنسان هو الذي يُبنى على معرفة أخلاقه لا على إعجازه.

ثم مضت به إلى ورقة بن نوفل، ابن عمها، وكان قد تنصّر في الجاهلية، وكتب من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي. فسمع منه ورقة ما رأى، وقال:

هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى. يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يُخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: «أَوُخْرِجِيَّ هُم؟» قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزراً.

— متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

أَوُخْرِجِيَّ هُم؟ سؤال النبي العظيم، وهو لا يتخيل أن يُخرج من أهله وبلده. وهو الذي كان الصادق الأمين عند قومه. وسيُخرج بعد سنين. وهذا السؤال الصغير، المندهش، المجروح، هو بذرة الفصل الذي يلي.

ليلة الإسراء والمعراج



سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا

ليست هذه الليلة يوماً من أيامه كسائر الأيام، فقد سار فيها ما لا تسيره قافلة ولا يحمله بعير. ومع ذلك فلا يكتمل كتابٌ عن أيامه ما لم يقف عندها، لأنها هي الليلة التي رُفِعَ فيها من أرض الصبر إلى حيث لا تصل إليه شكوى ولا يبلغه أذى. وقد وقعت في سنوات الشدة بمكة، قبل الهجرة، حين كانت الأرض تضيق والسماء تُفتح.

سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ ءَايَاتِنَا
إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾

سورة الإسراء : ١

وتأمل في الآية كلمة واحدة: ﴿بَعْدَهُ﴾. لم يقل: برسوله ولا بنبيه ولا بحبيبه. قال: بعبده. فكأن أعلى مقام يُرفع إليه الإنسان هو مقام العبودية، وأن أرفع ما في هذه الرحلة ليس أنه صعد، بل أنه عبدٌ صعد بأمر ربه.

بين النَّائم واليقظان

ويصف ﷺ بداية الرحلة، وهي ليست بداية سفرٍ بل بداية تهيئة:

ثم أُتيتُ بطسٍ من ذهبٍ ممتلئٍ حكمةً وإيماناً، فأفرغ في صدري، ثم أطبق.

— متفق عليه عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن مالك بن صعصعة

قبل أن يُرفع صدر قلبه بالحكمة والإيمان. فكأن الرحلة تقول إن من أراد أن يرتقي فعليه أن يُملأ قلبه قبل أن يرتفع جسده. وإن الذي يصعد بلا صدرٍ مهيبٍ يستقط. وهذا شأن كل مرتفعٍ في الدنيا: يعلو من يُملأ قلبه قبل أن يُرفع مقامه.

في الحجر

وأصبح الصباح، وحدث الناس بما رأى، فكذبته قريش. ولتقف عند ما جرى بعد التكذيب، لأن فيه منهجاً:

لما كذبتني قريش قتت في الحجر، فجلى الله لي بيت المقدس، فطفقتُ أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه.

— متفق عليه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما

لم يُجادلهم في الغيب ولا في المعراج، بل سألوه عن شيءٍ يعرفونه هم ويستطيعون التحقق منه: صفة بيت المقدس، وكانوا تجاراً يعرفون الطريق إلى الشام. فجعل يصفه لهم وهو ينظر إليه. وهكذا وضع الدعوى على محكِّ ما يُتحقق منه، فمن أراد أن يصدّق الغيب فليبدأ بالشاهد.

اللبن أو الخمر

أُتي رسول الله ﷺ ليلة أُسري به بقدرين من خمرٍ ولبن، فنظر إليهما فأخذ اللبّن. فقال جبريل: الحمد لله الذي هداك للفطرة، لو أخذت الخمر غَوَتْ أمتك.

— متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه

وبين قدحين اختار الفطرة. وليس الاختيار هنا بين حلالٍ وحرامٍ فقط، بل بين ما يوافق خلقة الإنسان وما يعارضها. فقليل له إنه هُدي لها، وإن اختيار غيرها كان سيجرّ أمته إلى الضلال. وفي هذا أن الدين الذي جاء به لا يعارض الفطرة بل يصونها.

خمسون صلاة

وقد انتهت الرحلة إلى ما كان المقصود بها: الصلاة. فُرضت خمسين في اليوم واليلة، ثم نزل ﷺ فرّاً على موسى عليه السلام:

فقال: بم أمرت؟ قلت: بخمسين صلاة كل يوم. قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة في اليوم، وإني والله قد جربتُ الناس قبلك، وعالجْتُ بني إسرائيل أشدَّ المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك.

— متفق عليه عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن مالك بن صعصعة

فرجع، حتى صارت خمساً، ونودي: «هي خمسٌ وهي خمسون، ما يُبدل القول لديّ». فأنت ترى أن النبي العظيم الذي صعد إلى أبعد مما يبلغه بشر لا يزال يحمل همَّ أمته، وأن الصلاة لم تنزل إلى الأرض بوحٍ في غار، بل فُرضت في السماء، كأن الله أراد أن يكون المؤمن في كل صلاةٍ على موعدٍ مع ما رأى نبيّه في تلك الليلة. وقد ذكر القرآن مما رآه عند سدره المنتهى:

إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى

﴿١٨﴾

سورة النجم: ١٦-١٨

ومن هنا يقول من يتأمل: إن الإسراء كان ليلةً واحدة، وأما أثره فيبقى في الأمة كل يوم خمس مرات. فمن أراد أن يشارك في المعراج فليقم الصلاة. فكأن هذه العلاقة بين الأرض والسماء التي فُتحت في تلك الليلة لم تُغلق، بل صارت باب كل عبد.

الفصل الثاني عشر

يوم الهجرة



إِذْ يَقُولُ لِصُحْبِهِ لَا تَحْزَنَ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا

وبعد ثلاث عشرة سنة من ذلك اليوم في الغار، ضاقت مكة على أهل الإيمان حتى لم يبق لهم فيها مقام. وهاجر من هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة أفواجاً، وبقي رسول الله ﷺ ينتظر الإذن من ربه. وجاء الإذن، وجاء اليوم الذي لا يُنسى.

في نحر الظهيرة

تروي عائشة، وكانت صغيرة في بيت أبيها، ما جرى يومها:

فبينما نحن يوماً جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة، قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ مُتَقَنَّعاً، في ساعة لم يكن يأتينا فيها. فقال أبو بكر: فداءً له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر.

— رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها

وساعة الظهيرة في مكة ساعة حرٍّ لا يخرج فيها أحد. ولهذا جاء متقنَّعاً، أي مغطّي رأسه ووجهه، لئلا يراه من يعرفه. وكان من عادته أن يأتي بيت أبي بكر في أول النهار أو آخره، فلما جاء في الظهيرة علم أبو بكر أن الأمر عظيم. ثم خرج من عنده من كان في البيت، وقال النبي ﷺ: «فإنه قد أُذن لي في الخروج». فقال أبو بكر: الصُّحبة يا رسول الله؟ قال: «الصُّحبة».

فوالله ما شعرتُ قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكي من الفرح، حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ.

— رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها

رجلان يتهيآن لأخطر رحلةٍ في تاريخ الإسلام، وتركُ للبيت والأهل والمال، وطلبُ من قريش على رأس كل منهما. وأحدهما يبكي فرحاً لأنه سيرافق الآخر. وقد كان الأقرب إلى النفس أن يبكي خوفاً. لكن أبا بكر بكى لأن الحلم الذي انتظره سنين كان في أن يُختار صاحباً. وليس في تاريخ الصداقة صفحةٌ أنقى من هذه.

وجهِزوا لهما الزاد في سفرة، فلم تجد أسماء بنت أبي بكر ما تربط به فم الجراب، فشقَّت نطاقها نصفين، فربطت بواحد الزاد، وانتطقت بالآخر. فُسِّمَت: ذات النطاقين.

في الغار

مضيا ليلاً إلى غار ثور، جنوب مكة، في اتجاه معاكس تماماً للمدينة التي يريدانها. وأقاما فيه ثلاث ليال. وفي الغار حدث ما حفظه أبو بكر في ذاكرته

قلتُ للنبي ﷺ وأنا في الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا
تحت قدميه. فقال: «ما ظنُّك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما؟»

— متفق عليه عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه

وقد خلد القرآن ذلك:

إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا
ثَانِيًا أَثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ
إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدُوهُ بِجُنُودٍ لَمْ
تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ
الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

سورة التوبة : ٤٠

والمشهد هنا لوحة تُرى بالعين قبل أن تُقرأ: كهف ضيق ونور ضعيف، وفي
الخارج أقدام تدب حول الغار، وفي الداخل رجلان لا يملكان سلاحاً. أحدهما
خائف على صاحبه لا على نفسه، والآخر هادئ مطمئن، لا لأن الخطر غير
موجود بل لأن معه من لا يغيب. وكان الخوف الذي في صدر أبي بكر عظيماً،

لكنه بُدِدَ بِجَمَلَةٍ وَاحِدَةٍ. وَكَأَنَّ أَمَانَهُ لَمْ يُبَيِّنْ عَلَى أَنَّ الْأَعْدَاءَ لَا يَرُونَهُ، بَلْ عَلَى أَنَّ اللَّهَ مَعَهُ إِنْ رَأَوْهُ.

سِراقَة

وخرجوا من الغار، وقد جعلت قريش مئة ناقةٍ لمن يأتي بأحدهما. فلحق بهما سِراقَة بن مالك المدلجي، وهو فارسٌ ماهر يطمع في الجائزة. فلما اقترب منهما غاصت قوائم فرسه في الأرض إلى بطنها. فعلم أن بينه وبين الرجلين مانعاً، فنادى بالأمان. وجعل بعد ذلك لا يلتقي أحداً من الطلب إلا رده، وقال: كُفَيْتُمْ ما هنا.

وتأمل التحول: الصائد صار حارساً، والفارس الذي خرج ليأسر النبي العظيم عاد يمنع الناس من اتباعه. ولا يجري هذا إلا حين تكون قدرة الله فوق قدرة المتآمرين. وأسلم سِراقَة بعد ذلك.

هذا رسول الله قد جاء

وبعد أيام وصلاً إلى المدينة. وقد روى البراء بن عازب ما رآه من فرح أهلها:

فما رأيتُ أهل المدينة فرحوا بشيءٍ فرحهم برسول الله ﷺ، حتى رأيتُ
الولائد والصبيان يقولون: هذا رسول الله قد جاء.

— رواه مسلم عن البراء بن عازب رضي الله عنهما

ثم دخل إلى بيت أبي أيوب الأنصاري، وبدأ البناء. وكانت الهجرة، كما رأى
الذين تأملوا فيها، أكثر من انتقالٍ من مدينة إلى مدينة. فقد نقلت الدعوة من
مرحلة الضعف والصبر إلى مرحلة الدولة والتأسيس. وقد قالت عائشة إن النبي
ﷺ دعا قائلاً:

«اللهم حبِّب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشدّ».

— متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

لم يقل: انس مكة. قال: كما أحببنا مكة. ولهذا فإن الغريب الذي يحمل في قلبه
وطناً لا يطلب أن يحوه، بل يطلب أن يتسع قلبه لوطنٍ آخر بجانبه.

الفصل الثالث عشر

يوم الحديبية



إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا

في السنة السادسة للهجرة رأى النبي ﷺ في منامه أنه يدخل المسجد الحرام،
نخرج إلى مكة معتمرًا. ومعه من أصحابه ألف وأربعمئة، ليس معهم سلاحٌ إلا
السيوف في أغمادها، ومعهم الهدى. قال جابر:

كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمئة.

— متفق عليه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما

وبلغ قريشاً خبرهم، فخرجوا لصدّهم. وفي الطريق بركت ناقة النبي ﷺ، وهي
القصواء، فقال الناس: خلأت القصواء، أي حرنت. وفي هذه اللحظة تظهر
نظرته إلى الأحداث:

«ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس
الفيل». ثم قال: «والذي نفسي بيده، لا يسألونني خُطَّةً يعظّمون فيها
حرمات الله إلا أعطيتهم إياها».

— رواه البخاري عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم

فهذا النبي العظيم قد قرّر قبل أن يبدأ التفاوض: أي شيء يطلبه خصومه
يعظّمون به حرمات الله سيُعطيهم إياه. لا يقول هذا ضعفاً، فإن ألفاً وأربعمئة
رجلٍ حوله ما كانوا ليقبلوا بالضعف. بل يقوله لأنه يرى أن أهم ما في الموقف
هو حرمة البيت، وأن الدم الذي يُراق في الحرم أخطر من الشروط التي تُكتب.

عروة بن مسعود

وأرسلت قريش عروة بن مسعود الثقفي، وهو رجلٌ خبير بالملوك، ليفاوض.
فقعد يراقب أصحاب النبي ﷺ، ثم رجع إلى قومه وقال ما لم يتوقعوا:

أي قوم، والله لقد وفدتُ على الملوك، ووفدتُ على قيصر وكسرى
والنجاشي، والله إن رأيتُ ملكاً قط يعظّمه أصحابه ما يعظّم أصحابُ
محمدٍ محمدًا. والله ما تنخّم نخامةً إلا وقعت في كف رجلٍ منهم فذلك
بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون
على وضوئه.

— رواه البخاري عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم

وشهادة العدو أصدق من شهادة الصديق. هذا رجلٌ لم يؤمن بعد، رأى الملوك وعرف كيف يحترم الناس سادتهم، ثم قال إنه لم يرَ مثل هذا. والعجيب أنه لم يرَ ذلك في بلاط ولا في قصر، بل في عراءٍ بين أناسٍ خرجوا معتمرين لا يملكون إلا سيوفاً في أعمادها.

اكتب باسمك اللهم

وجاء سهيل بن عمرو يفاوض. فلما أمر النبي ﷺ بكتابة الصلح، قال سهيل: لا أدري ما الرحمن الرحيم، اكتب باسمك اللهم. فوافق. ثم قال ﷺ: اكتب: هذا ما قاضى عليه محمدٌ رسول الله. فقال سهيل: لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبد الله. فقال النبي ﷺ: «والله إني لرسول الله وإن كذبتوني». ثم أمر علياً أن يحو، فأبى عليٌّ أن يحو: يحو:

فقال له: «أمحه». فقال علي: ما أنا بالذي أمحاه. فحاه رسول الله ﷺ بيده.

— متفق عليه عن البراء بن عازب رضي الله عنهما

أيّ موقفٍ هذا؟ رسولٌ يحو بيده صفة الرسالة من كتاب الصلح. ولو كان في الأمر شيء من حظّ النفس لما فعل. لكن النفس عنده لا تعني شيئاً حين يكون الأمر مصلحة الدعوة. وهذه هي القوة التي لا يعرفها كثيرٌ من الناس: قوة التنازل عن الشكل لإنقاذ المضمون. فاسم «رسول الله» باقٍ في صدور أصحابه ولا يحتاج إلى ورقة.

وكانت الشروط تبدو مجحفة: أن يرجع المسلمون هذا العام دون أن يدخلوا مكة، وأن يردّوا من جاءهم من قريش مسلماً، ولا تردّ قريش من خرج إليها منهم. وفي هذه اللحظة بالذات جاء أبو جندل بن سهيل يرسف في قيوده، قد خرج من مكة مسلماً يطلب الخلاص، فقال أبوه سهيل: هذا أول ما أقاضيك عليه أن تردّه. فقال النبي ﷺ لأبي جندل:

«يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً».

— رواه البخاري عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم

ألَسنا على الحق؟

وغضب الناس. ومن بين الذين غضبوا عمر بن الخطاب، فجاء إلى رسول الله ﷺ يسأل بحدّته المعروفة:

أَلَسْتَ نبيَّ الله حقّاً؟ قال: «بلى». قلت: ألَسنا على الحق وعدّونا على الباطل؟ قال: «بلى». قلت: فَلِمَ نُعطي الدنيّة في ديننا إذا؟ قال: «إني رسول الله، ولستُ أعصيه، وهو ناصري».

— رواه البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه

ويقول عمر في آخر الرواية إنه عمل بعد ذلك أعمالاً، أي أعمالاً صالحةً تكفّر ما كان من تلك المراجعة. وأروع ما في هذا الموقف أن عمر، وهو من هو في الصدق، كان أول المعترضين، وأن النبي ﷺ لم يجادله جدالاً مرّاً، بل أجابه

بجملة هادئة. وإن الفرق بين من يقود برؤية ومن يقود بانفعال هو أن الأول يقبل أن يبدو أمام الناس مخطئاً، وهو يعلم أين يريد أن يصل.

ثم قوموا فانحروا

وانتهى الصلح، فقال لأصحابه: قوموا فانحروا ثم احلقوا. فما قام منهم رجل. حتى قالها ثلاث مرات، فلم يقم أحد. فدخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس. قالت:

يا نبي الله، أتحب ذلك؟ اخرج، ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك: نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه. فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمّاً.

— رواه البخاري عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم

وفي هذا المشهد شيئان: قائد لا يرى عيباً في أن يستشير امرأة وهو في ساعة عصبية، وجماعة لا يهزها الكلام بل الفعل. أم سلمة لم تُجادل ولم تُقنع، بل قالت له: افعل أنت أولاً. وهذا هو سر ما يُسمى القدوة: الناس لا تقتدي بما تسمع، بل بما ترى.

أَوْفَتْحُ هُوَ؟

وفي طريق العودة نزلت سورة الفتح. فقرأها النبي ﷺ على عمر. قال عمر: أَوْفَتْحُ هُوَ يا رسول الله؟ قال: «نعم». وأي فَتْحٍ؟ رجعوا من غير أن يدخلوا مكة،

وقبلوا بما ظنّوه ذلاً. لكن الأحداث بعد ذلك كشفت: انتشرت الدعوة في أمن الهدنة، ودخل في الإسلام عددٌ كبير، ثم نقضت قريش العهد فجاء الفتح الأكبر بعد نحو عامين، وقد صار الجيش الذي كان ألفاً وأربعمئة عشرة آلاف.

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ
مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيَتِمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا
مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَينصركَ اللَّهُ نصرًا عزيزًا ﴿٣﴾

سورة الفتح : ١-٣

لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ
فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا
قَرِيبًا ﴿١٨﴾

سورة الفتح : ١٨

وهكذا تعلّمنا الحديبية أن النصر ليس دائماً ما يبدو أنه نصر، وأن الهزيمة الظاهرة قد تكون فتحاً مبيناً، وأن المعيار الذي يُقاس به الأمر ليس ما نراه اليوم بل ما يريده الله لنا غداً.

الفصل الرابع عشر

يوم فتح مكة



إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ

وبعد ثماني سنين من الهجرة جاء اليوم الذي لم يتخيله أحدٌ من سكان مكة ولا من الذين خرجوا منها. جيشٌ بعشرة آلاف يقترب من المدينة التي أُخرج منها صاحبه. ومعه عدد من الذين عذبهم قريش وصادرت بيوتهم، والذين هددوا وطُردوا. فماذا يفعل النبي العظيم في اليوم الذي يمكنه فيه أن يفعل كل شيء؟

من دخل دار أبي سفيان

وكان أبو سفيان بن حرب، زعيم قريش الذي قاد ضده معارك أحد والأحزاب، قد جيء به إلى النبي ﷺ فأسلم. وأعلن النبي ﷺ:

«من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن،
ومن أغلق بابه فهو آمن».

— رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه

انظر كيف رتب الأمان: بيت أبي سفيان، خصمه الأول، يصير حرماً. ومن لا يريد القتال فليرم سلاحه. ومن لا يريد الخروج فليغلق بابه. فلم يترك لأحد عذراً في الخوف، ولا طريقاً للتشفي. وهو القادر على ما شاء.

ثلاثمئة وستون

ثم دخل المسجد الحرام، وكان حول الكعبة أصنامٌ نُصبت على مدى قرون، يعظمها العرب ويحجون إليها. ويقول عبد الله بن مسعود:

دخل النبي ﷺ مكة وحول الكعبة ثلاثمئة وستون نُصباً، فجعل يطعنها بعودٍ في يده ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً».

— متفق عليه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه

وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا



سورة الإسراء : ٨١

وهذا هو الجانب الآخر من الصورة: الذي عفا عن أهل مكة هو الذي حطم الأصنام. فالعفو عن الأشخاص لا يعني التسامح مع الباطل. بل إن أعظم العفو هو الذي يصدر عن النبي العظيم، وهو لا يهادن الباطل. ثم دخل البيت مع

أسامة بن زيد وبلال وعثمان بن طلحة، فأغلقوا عليهم الباب، فصلّى ركعتين بين العمودين، ثم خرج.

لو أن فاطمة

وفي أيام الفتح نفسها وقع ما يكشف عدله. فقد سرت امرأة من بني مخزوم، وهم من أعرق بيوت قريش. وأهمّ قريشاً شأنها، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد، حبّ رسول الله؟ فكلّبه أسامة، فتلّون وجه رسول الله ﷺ وقال:

«أشفع في حدّ من حدود الله؟». ثم قام فاخطب فقال: «إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ. وإيم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها».

— متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

في اليوم الذي يمكن للمنتصر أن يتساهل مع قومه ليكسب قلوبهم، يقول: لو سرقت ابنتي. وقد ظنّ بعضهم أن النصريّ غير الميزان، فجاء هذا الموقف يؤكد أن العدل عنده لا يتغير بحسب الظروف. لقد رحم أهل مكة، لكنه لم يتساهل مع القانون. وهذا هو الفارق بين رحمة تبني دولة ورحمة تهدمها.

وبعد أن نزلت سورة النصر، وهي آخر ما نزل من السور كاملة، تغير ذكره في صلاته. قالت عائشة:

ما صلى النبي ﷺ صلاةً بعد أن نزلت عليه ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ إلا يقول فيها: «سبحانك ربنا وبمحمدك، اللهم اغفر لي». — متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ
يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ
وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾

سورة النصر: ١-٣

وفي هذا الجواب الأخير ما يختصر فلسفة النصر عنده. فإن الفاتح في التاريخ يرفع رأسه حين ينتصر، ويطلب تماثيل وأقواساً وخطباً. أما هو فيُنزل رأسه ويطلب المغفرة. ولعلّ هذا الفارق وحده كافٍ ليدرك العاقل أن هذا النصر لم يكن له، بل هو لله، وأن النبي العظيم الذي دخل مكة بعد ثماني سنوات من الغربة لم يكن يرى نفسه فاتحاً، بل عبداً يسبح ويستغفر.

غنائم حنين: الأنصار



وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ

وبعد أن انجلت غبار حنين، بقي مألٌ كثير: سبايا وإبلٌ وغنم. وانتظر النبي ﷺ وفد هوازن أياماً ليردّ إليهم ما أخذ، فلما لم يأتوا قسم الغنائم. وكان فيمن أعطى سادة قريش، وعطاؤهم ضخم، يقول رافع بن خديج:

أعطى رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، وعُيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، كلّ إنسانٍ منهم مئةً من الإبل.

— رواه مسلم عن رافع بن خديج رضي الله عنه

وكان هؤلاء حديثي عهدٍ بالإسلام. وكان في إعطائهم سياسةً دقيقة، وهي تأليف القلوب. وقد رأى صفوان بن أمية أثر ذلك في قلبه، فقال:

والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني، وإنه لأبغضُ الناس إليّ،
فما برح يعطيني حتى إنه لأحبُّ الناس إليّ.
— رواه مسلم عن صفوان بن أمية رضي الله عنه

ولو توقف الأمر هنا لقلنا: سياسةٌ حكيمة. لكن الأمر لم يتوقف.

سيوفنا تقطر من دمائهم

فقد وقع في نفوس بعض الأنصار شيءٌ. هؤلاء الذين آووا النبي ﷺ حين طُرد،
وقاتلوا معه في كل غزوة، وقتلوا في حنين حين فرّ الناس، يرون الإبل والغنم
تُعطى لقريش وهم لا يُعطون شيئاً. قالوا:

يغفر الله لرسول الله ﷺ، يُعطي قريشاً ويتركنا، وسيوفنا تقطر من
دمائهم.

— متفق عليه عن أنس بن مالك رضي الله عنه

وبلغ ذلك النبي ﷺ. وكان في وسعه أن يتجاهل أو يعاتب أو يعلن في المسجد ما
يريد. لكنه فعل ما لا يفعله إلا من يعرف قدر من أمامه: أرسل إلى الأنصار،
فجمعهم في قبّةٍ من آدم، ولم يدعْ معهم أحداً غيرهم. ثم سأهم:

«ما حديثٌ بلغني عنكم؟»

— متفق عليه عن أنس بن مالك رضي الله عنه

فقال ذوو الرأي منهم: أما ذوو رأينا يا رسول الله فلم يقولوا شيئاً، وأما أناسٌ منا حديثُ أسنانهم فقالوا كذا. فلم يغضب النبي ﷺ ولم يلُ. وإنما قال ما يمكن أن يُقرأ كأنه أرقّ خطبةً في تاريخ القيادة:

«إني أعطي رجالاً حديثي عهدٍ بكفرٍ أتألفهم. أما ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وتذهبون برسول الله ﷺ إلى رحالكُم؟ فوالله لما تنقلبون به خيرٌ مما ينقلبون به». قالوا: بلى يا رسول الله، قد رضينا.

— متفق عليه عن أبي سعيد الخدري وأنس بن مالك رضي الله عنهما

لقد قلب الميزان كله. هم يقيسون بالإبل، وهو يقيس بما لا يُقاس: أن يرجعوا ومعهم رسول الله. كأنه يقول لهم: إن كانت الدنيا قد ذهبت إلى هناك، فإن الذي ذهب إلى رحالكُم لا يُقدَّر بثمن. وما كان أمام الأنصار إلا أن يبكوا:

فبكى القوم حتى اخضلت لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً.

— رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه

الأنصار شعارٌ والناس دثار

ثم زاد فجعل بينهم وبينه ما لا يبلغه مدح:

«لولا الهجرة لكنتُ امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس وادياً وشعباً
لسلكتُ وادي الأنصار وشعبهم. الأنصار شعارٌ والناس دثار. إنكم
ستلقون بعدي أثرةً، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض».

— متفق عليه عن أبي سعيد الخدري وأنس بن مالك رضي الله عنهما

والشعار هو الثوب الذي يلي الجسد، والدثار هو ما يعلوه. أي أن الأنصار أقرب
الناس إليه كما يكون الثوب الملاصق للجسم. وهذا ما يقوله لهم بعد أن يُنهي
شكواهم. ومن الغريب أن الرجال الذين دخلوا القبة وفي صدورهم عتب
خرجوا منها وفي صدورهم محبة أكبر. والسرّ هنا أنه لم يعاملهم كمتّهمين بل
كشركاء. لم يدافع عن نفسه، بل شرح لهم قيمتهم. ثم دعا لهم: «اللهم اغفر
للأنصار، ولأبناء الأنصار، ولأبناء أبناء الأنصار».

وقد جاء القرآن في وصفهم قبل ذلك بآية تتخذ مكانتهم:

وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ
إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا
وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ
شَخْصًا نَفْسَهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾

سورة الحشر: ٩

ولعلّ من أجمل ما في هذا الفصل أن الأنصار حين سمعوا النبي ﷺ لم يطلبوا الإبل، بل طلبوه. وأن النبي ﷺ حين رأى فيهم هذا، ضمّهم إليه بحبّةٍ تفوق كل غنيمة. وهكذا يتبيّن لنا أن القيادة ليست قسمة الأموال بالعدل فقط، بل قسمة القلوب بالحب، وأن الذي يحتاج إلى مال ليقى متبوعاً لم يبلغ بعد مرتبة القائد.

الفصل السادس عشر

شهر في العرفة



يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا

قد يظنّ من يقرأ هذه الأيام أن بيت النبي ﷺ كان لا تعتريه عاصفة. لكنه بيت فيه بشر، وفيه نساء لهنّ حاجات وغيره وطلب، فكان فيه ما في كل بيت. وفي سنة من السنين وقع ما جعله يعتزل نساء شهرًا كاملاً. وقد رواه جابر وعمر رضي الله عنهما بما يكشف الحقيقة من غير تجميل.

واجماً ساكناً

قال جابر: جاء أبو بكر يستأذن على النبي ﷺ فوجد الناس جلوساً ببابه، لم يؤذن لأحد منهم. ثم أذن لأبي بكر فدخل، ثم أقبل عمر فأذن له:

فوجد النبي ﷺ جالساً حوله نساؤه، واجماً ساكناً.

— رواه مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما

واجماً ساكناً. هذه هي الصورة. لا غضبٌ مدوّ ولا شكوى، بل النبي العظيم في وسط نساائه صامتٌ لا يتكلم. وعمر، الذي يعرف رسول الله ﷺ، أراد أن يُخرجه من هذا الصمت. قال في نفسه: لأقولن شيئاً أضحك به النبي ﷺ. فقال: يا رسول الله، لو رأيتَ بنتَ خارجة سألتني النفقة فقمْتُ إليها فوجأتُ عنقها. فضحك رسول الله ﷺ وقال: «هنّ حولي كما ترى يسألني النفقة».

وهنا بيت القصيد. لم يكن الخلاف على شيء غير ما يسأله كل أهل بيت: النفقة. وكان البيت بيتاً شحيح المورد، كما رأينا. فطالبن بما يعجز عنه، وتألّم، فاعتزل. أما أبو بكر وعمر فقاما إلى ابنتيهما عائشة وحفصة، فقالا: تسألان رسول الله ﷺ ما ليس عنده؟ فقلن: والله لا نسأل رسول الله ﷺ شيئاً أبداً ليس عنده. ثم اعتزلن شهراً.

على حصير

وتعالوا نسمع عمر يصف ما رآه حين دخل على النبي ﷺ في غرفته في تلك الأيام، وقد ظنّ الناس أنه طلق نساءه:

فدخلتُ عليه، فإذا هو مضطجعٌ على رمالٍ حصيرٍ ليس بينه وبينه فراش، قد أثّر الرمال بجنبه، متكئاً على وسادةٍ من أدمٍ حشوها ليف. وإذا أفيقٌ مُعلّق، وقبضةٌ من شعيرٍ نحو الصاع، فما رأيتُ في البيت شيئاً يردّ البصر غير أهبٍ ثلاثة. فابتدرتُ عيناى.

— متفق عليه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه

قال: ما يبكيك يا ابن الخطاب؟ قلت: يا نبي الله، وما لي لا أبكي، وهذا الحصار قد أثر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذاك كسرى وقيصر في الثمار والأنهار، وأنت رسول الله وصفوته. فقال:

«يا ابن الخطاب، أما ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟»

— متفق عليه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه

والنبي العظيم ﷺ الذي يضطجع على حصير قد أثر في جنبه، وبجانبه صاعٌ من شعير، يرى أن هذا ما اختاره، وأنه اختار الآخرة. ثم يقول لعمر: أما ترضى؟ كأنه يسأل: هل يوجد في الدنيا ما يعادل أن تكون الآخرة لك؟ وسأله عمر: أطلّقت نساءك؟ قال: «لا». فقال عمر: الله أكبر.

تسع وعشرون ليلة

وبعد تسع وعشرين ليلة نزلت آية التخيير. وكان أول ما فعل ﷺ أنه جاء إلى عائشة. تقول:

فلما مضت تسع وعشرون ليلة دخل عليّ رسول الله ﷺ، بدأ بي، فقال: «يا عائشة، إني ذاك لك أمراً، فلا عليك أن لا تعجلي حتى تستأمرى أبويك». ثم قرأ عليّ الآية. فقلت: أفي هذا أستأمر أبوي؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة.

— متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُمْ تُرِيدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا

وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا

﴿٢٨﴾ وَإِن كُنْتُمْ تُرِيدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ

فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

سورة الأحزاب : ٢٨-٢٩

وتأمل قوله: «فلا عليك أن لا تعجلي». هو بالغ في أن يترك لها المجال. لا يريد أن تجيب انفعالاً ولا خوفاً، ولا أن يضغط عليها بما يملكه من مقام. يريد أن تختار حرة، وإن كان الخيار بينه وبين الدنيا. وجاءت إجابة عائشة كما جاءت: أريد الله ورسوله والدار الآخرة. ثم قالت: فعل أزواج رسول الله ﷺ مثل ما فعلتُ.

وهكذا انتهى الشهر بما لا تنتهي به البيوت عادة: لا بانتصار طرف ولا بتنازل منكسر، بل باختيار حرّ. ولهذا لا يمكن لقارئ هذه الأيام أن يقول إن بيت النبي ﷺ كان بيتاً قاسياً أو مخيفاً. كان بيتاً يملك الجميع فيه حرية أن يختاروا، وأن يتحملوا نتيجة اختيارهم، وأن يعود البيت بعد ذلك إلى ما كان عليه.

الفصل السابع عشر

يوم عرفة



الْيَوْمَ اكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي

ثم جاء العام العاشر، وخرج رسول الله ﷺ إلى الحج ومعه من المسلمين عدد لم تعرف الجزيرة مثله. وقال لهم في حجته ما رواه جابر:

«لتأخذوا مناسككم، فإني لا أدري لعلّي لا أحجّ بعد حجتي هذه».

— رواه مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما

وقد أحسّ في قلبه أن الأمر يقترب. وكان يعلم الناس، ويعرف أنه لا يتكلم وبعده الوقت. ثم وصل إلى عرفة، وقد ضربت له قبةً بئرة، فنزل بها حتى زالت الشمس. ثم أمر بناقته القصواء فرحلت، فأتى بطن الوادي، وكانت الجموع حوله لا تُحصى، فخطب خطبةً هي أشهر خطبة في تاريخ الإسلام.

«إن دماءكم وأموالكم حرامٌ عليكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا. ألا كل شيءٍ من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع. ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دمٍ أضعُ من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث. وربا الجاهلية موضوعة، وأول رباً أضعُ ربانا، ربا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوعٌ كله».

— رواه مسلم عن جابر رضي الله عنه

وقد يمرّ القارئ سريعاً على هذه الجملة، ولا ينتبه إلى ترتيبها العجيب. فإن أول دمٍ أسقطه من دماء الجاهلية هو دم قريبٍ له، ابن ربيعة بن الحارث، من بني هاشم. وأول رباً أبطله هو ربا عمّه العباس. بدأ بنفسه وأهله قبل أن يطلب من غيرهم. وهذه القاعدة التي يفتقر إليها كثيرٌ من المصلحين: أن تبدأ الإصلاح من بيتك.

اتقوا الله في النساء

«فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحلتم فروجهن بكلمة الله».

— رواه مسلم عن جابر رضي الله عنه

وفي خطبته يوم النحر بمنى، كما في رواية أبي بكرة عند البخاري ومسلم، سأل الناس: أيّ يوم هذا؟ أيّ شهر هذا؟ أيّ بلد هذا؟ وهم يجيبون، وكل مرة يسكت حتى ظنوا أنه سيسميه بغير اسمه، ثم قال: «فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام، حرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا. ليبلغ الشاهدُ الغائب». فجمع بين الدم والمال والعرض، وربط ذلك بحرمة الزمان والمكان، ليعلم الناس أن حرمة الإنسان من جنس حرمة الكعبة.

ما تركتُ فيكم

«وقد تركتُ فيكم ما لن تضلّوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله. وأنتم تُسألون عني، فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك قد بلّغت وأدّيت ونصحت. فقال بإصبعه السبابة، يرفعها إلى السماء وينكّتها إلى الناس: «اللهم اشهد، اللهم اشهد»، ثلاث مرات.

— رواه مسلم عن جابر رضي الله عنه

ولتخيل المشهد كما يراه كل من حضر: وادٍ تمتلئ ضفتاه بالناس، وفي الوسط النبي العظيم على ناقه، يرفع إصبعه إلى السماء ثم ينزلها إلى الجموع. السماء والأرض في إشارةٍ واحدة. ويسأل الله أن يشهد على أن ما بلّغه قد وصل. ثم يوصيهم بالكتاب. لا تاجاً ولا عرشاً ولا خلافةً موروثة، بل كتاباً. وقد تشهد الأيام بأنه كان على حق، إذ لم يبق ما تركه من الدنيا إلا القرآن.

اليوم أكملت لكم دينكم

وفي ذلك اليوم نزلت آيةٌ يرونها عمر بن الخطاب رضي الله عنه. قال له رجلٌ من اليهود: يا أمير المؤمنين، آيةٌ في كتابكم تقرؤونها، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. قال: أي آية؟ قال:

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنَزِيرِ وَمَا أَهْلٌ لغيرِ
اللهِ بِهِ ۚ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيةُ وَالنَّطِيجَةُ وَمَا
أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ
تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْمِ ۚ ذَلِكُمْ فِسْقٌ ۚ الْيَوْمَ يَمِيزُ الَّذِينَ كَفَرُوا
مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ۚ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ
دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۚ
فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
رَحِيمٌ ﴿٣﴾

سورة المائدة : ٣

قال عمر: إني لأعلم أي يومٍ نزلت، وأي مكانٍ نزلت: نزلت يوم عرفة، في يوم الجمعة، ونحن واقفون مع رسول الله ﷺ بعرفة.

— متفق عليه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه

وحين يُعلن الله كمال الدين فمعنى ذلك أن الرسالة بلغت تمامها، وأن الأمانة وُضعت في أيدي من سيحملها.

أكثر من أن يعتق

ما من يومٍ أكثر من أن يُعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة.

— رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها

وهكذا اجتمع في يومٍ واحد كمال الدين وعتق الرقاب، ووقف فيه آخر الأنبياء بين المجموع يقول: اللهم اشهد.

الفصل الثامن عشر

آخر النهار



وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا

تنتهي المعركة أو يمضي النهار، ويعود إلى المدينة كل ما كان فيها. ويُصَلِّي الناس المغرب ثم العشاء، وتفتت الأحاديث. وكان ﷺ يكره النوم قبل العشاء والحديث بعدها، كما رواه أبو برزة. فللنهار عنده انتهاءٌ كما أن له بداية، والليل ليس للسمير الفارغ بل للراحة والتجدد.

كان رسول الله ﷺ يكره النوم قبل العشاء والحديث بعدها.

— رواه البخاري ومسلم عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه

وإذا دخل البيت فقد طوى يوماً مليئاً: جاهد وعلم وقضى وصلّى وخدم، وما بقي إلا أن ينام. لكنه لا ينام كما ينام الناس. لقد قالت عائشة:

كان النبي ﷺ إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات.

— رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها

يغلق يومه بقراءة القرآن كما فتحه. وكأن اليوم كله قوسٌ بين آيتين: آيات آل عمران في الثلث الأخير من الليل، وسور الإخلاص والمعوذتين حين يغمض عينيه. وفي هذا التناسق ما يجعل العقل يتأمل: لم يكن هذا النبي العظيم يعيش أياماً متفرقة تتخللها العبادة، بل كان يعيش عبادةً واحدةً متصلةً تتخللها الأعمال. وكان يضع يده اليمنى تحت خده ثم يقول ما رواه حذيفة:

كان النبي ﷺ إذا أخذ مضجعه من الليل وضع يده تحت خده ثم يقول: «اللهم باسمك أموتُ وأحيا»، وإذا استيقظ قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور».

— رواه البخاري عن حذيفة رضي الله عنه

وهنا تغلق الدائرة. الذي افتتح يومه بحمد الله على البعث الصغير يغلقه بالتسليم لله في الموت الصغير. وبين الفتح والإغلاق يوم كامل: قيام وسواك وركعتان وخدمة أهل وسؤال عن الأحلام وصلاة بالناس ورحمةً بصغير وقضاءً بين خصمين وحفرٌ مع الحافرين وثباتٌ حين فرّ الفارون.

الفصل التاسع عشر

آخر الأيام



إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ

وللأيام كلها نهاية، وقد كان يعلم ذلك. فإذا اقترب أجله اشتدّ عليه المرض. وقد رُوي عن ابن مسعود أنه دخل عليه وهو يُوعَك، أي تأخذه الحمى بشدّة، فسّسه بيده وقال: يا رسول الله، إنك لتوعَك وعكًا شديدًا. قال:

«أجل، إني أوعَكُ كما يوعَكُ رجلان منكم». قلت: ذلك أن لك أجرين؟ قال: «أجل».

— متفق عليه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه

وقالت عائشة رضي الله عنها: ما رأيتُ الوجع على أحدٍ أشدّ منه على رسول الله ﷺ. فهذا الذي بلغ به الوجع ما بلغ، ومع ذلك لم يمنعه الوجع من أن يسأل عن الصلاة وعن الناس.

في بيت عائشة

وقالت عائشة: لما ثقل رسول الله ﷺ واشتدَّ وجعه استأذن أزواجه أن يُمرَّضَ في بيتي فأذنَّ له. فخرج بين رجلين تخطَّ رجلاه في الأرض. ثم أمر أن يصلي أبو بكر بالناس، فقال:

«مُروا أبا بكر فليصلَّ بالناس».

— متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

وراجعته عائشة في أمر ذلك: أبو بكر رجلٌ رقيق، إذا قام مقامك لا يسمع الناس من البكاء. وكرَّرَ عليها الطلب. فصلَّى أبو بكر بالناس أيام مرضه.

نظرةٌ من خلف الستر

ثم جاء صباح الاثنين. وأنس بن مالك، الذي خدمه عشر سنين، يروي ما رآه في ذلك الصباح بعينه، وكان بين الصفوف:

بينما المسلمون في صلاة الفجر يوم الاثنين، وأبو بكر يصلي بهم، لم يفجأهم إلا رسول الله ﷺ قد كشف ستر حجرة عائشة، فنظر إليهم وهم في صفوف الصلاة، ثم تبسَّم يضحك. فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف، وظنَّ أن رسول الله ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة. وهمَّ المسلمون أن يفتنوا في صلاتهم فرحاً برسول الله ﷺ حين رأوه. فأشار إليهم بيده: «أتموا صلاتكم». ثم دخل الحجرة وأرعى الستر.

— متفق عليه عن أنس بن مالك رضي الله عنه

وقد توفي ﷺ من يومه ذلك. تأمل هذه اللحظة التي حفظها التاريخ: النبي العظيم يجد في نفسه ما يجد من الوجد، ينهض إلى ستر الحجره ويكشفه ليتأكد أن الأمة التي علمها ما زالت قائمة في الصلاة. فإذا رأى الصفوف متراصة خلف أبي بكر، ورأى وجوه الناس موجهة إلى القبلة، تبسم، كأنه يقول: لقد أدت ما عليّ.

وقد وصفت عائشة رضي الله عنها آخر ما سمعته من كلامه، وهو مستند إلى صدرها: كان يقول:

«اللهم اغفر لي وارحمني وألحمني بالرفيق الأعلى».

— متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

وهكذا انتهى آخر أيامه كما بدأ كل أيامه: دعاء إلى الله، وصلاة بين الناس، وبشرى على الوجه. لم تكن النهاية غريبة عن البداية، ولا اليوم الأخير مختلفاً عن سائر الأيام إلا في أنه آخرها. وقد قال الله له في كتابه:

إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴿٣٠﴾

سورة الزمر: ٣٠

ولعل أعظم ما يتركه فينا هذا المشهد الأخير ما قاله الله للأمة كلها: إن الأشخاص يرحلون، ويبقى ما جاؤوا به. وقد ترك فينا كتاباً يتلى من الفجر إلى العشاء، وسيرة تعيش أيامها في كل قلب يريد أن يتبعها.

خاتمة: ما بين الفجرين



إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ
لِّأُولِي الْأَلْبَابِ

إذا أردنا أن نجمع ما رأيناه في هذه الأيام في جملة واحدة قلنا: هذا النبي العظيم لم يكن فيه شقٌّ بين الداخل والخارج. ما كان عليه في خلوته هو ما كان عليه في مسجده، وما كان في مسجده هو ما كان في ميدان قتاله. فإذا قلت: أين الحنان؟ وجدته في الحرب يبقى مع الناس. وإذا قلت: أين الصلابة؟ وجدتها في البيت تحت ستار اللين. وليس بين الحالتين تناقض، بل هي وجهان لقلبٍ واحد لم يُقسَم.

وقد وضع القرآن لنا قاعدة للنظر في هذه الحياة كلها، لا لنقرأها كما تُقرأ سيرُ الملوك ونحن ننبر، بل كما يقرأ المتعلّم دروسه ليعمل:

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ

يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾

سورة الأحزاب : ٢١

أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ، أي قدوةٌ تُتَّبَعُ لا تُتَّدَحْ فحسب. ولعلَّ أعظم ما تُعَلِّه لنا هذه الأيام أن الإنسان لا يصير عظيمًا في لحظةٍ كبيرةٍ وحدها، بل يصير عظيمًا حين تكون لحظاته الصغيرة كلها، من الفجر إلى العشاء، على مقياسٍ واحد من الصدق مع الله والرحمة بالخلق. فلا يكفي أن نُعجب بيوم بدر، بل علينا أن نسأل كيف نقوم من الليل، وكيف نجلس مع أهلنا، وكيف نخطب الأعرابي الذي أخطأ، وكيف نصدق حين يُغرينا الكذب، وكيف نثبت حين يتفرق الناس.

وقد نلخص الله رسالته ﷺ كلها في جملةٍ واحدةٍ تصلح أن تكون عنوانًا لكل يومٍ من أيامه:

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾

سورة الأنبياء : ١٠٧

رحمةٌ للعالمين: للغلام النائم في عرض الوسادة، وللزوجة التي تريد أن تطيل النظر إلى الحبشة، وللأعرابي الذي بال في المسجد، ولكعبٍ في ليلته الخمسين، ولعدوٍّ يُدعى قبل أن يُقاتل. فمن أراد أن يعرف كيف يمضي يومٌ كاملٌ في

طاعة الله وخدمة الخلق، فليضع هذه الأيام أمامه، وليبدأ غداً من الفجر.
وصلّى الله وسلّم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

المراجع



وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا

أولاً: المصادر التي نُقل عنها نصّ الكتاب

١. القرآن الكريم، برواية حفص عن عاصم، بالرسم العثماني. وقد نُقلت الآيات في الكتاب من نسخةٍ رقيةٍ للنص العثماني، وتمّت مطابقتها آلياً على ما ورد في الكتاب.

٢. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه (صحيح البخاري)، للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦ هـ).

٣. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ (صحيح مسلم)، للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١ هـ).

ثانياً: مراجع للتوسّع ومراجعة الألفاظ والسياق

هذه الكتب ليست مصدر الأحاديث المنقولة في هذا الكتاب، وإنما هي مظانّ يُرجع إليها لمن أراد شرح الألفاظ وبيان السياق التاريخي والتحقق من الروايات:

٠١. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ).

٠٢. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للإمام يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦ هـ).

٠٣. السيرة النبوية، لابن هشام (ت ٢١٣ هـ أو ٢١٨ هـ على خلاف).

٠٤. زاد المعاد في هدي خير العباد، للإمام ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ).

ملاحظة على التوثيق

نُقلت الأحاديث في الكتاب بنصّها أو بمعناها القريب منه، وقد تلخّص بعض الروايات الطويلة. ولم تُذكر أرقام الأحاديث ولا أرقام الصفحات لاختلاف طبعات الصحيحين، والمعولّ عليه في الرجوع هو اسم الراوي والكتاب والباب. ويُنصح بمراجعة كل رواية على الأصل قبل النشر، فإن العصمة لكلام الله وكلام رسوله ﷺ وحدهما.

ثبت مرويات الكتاب بحسب الفصول

فيما يلي مصادر الأحاديث المنقولة في كل فصل، كما وردت تحت كل حديث في موضعه:

مقدمة

متفق عليه عن أبي هريرة والمغيرة بن شعبة رضي الله عنهما ؛ متفق عليه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه

قبل أن تستيقظ المدينة

رواه البخاري ومسلم عن ابن عباس ؛ متفق عليه عن عائشة والمغيرة بن شعبة رضي الله عنهما ؛ متفق عليه عن حذيفة رضي الله عنه ؛ رواه البخاري عن حذيفة رضي الله عنه ؛ متفق عليه ؛ رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها

في بيته

رواه البخاري ؛ متفق عليه عن أنس رضي الله عنه ؛ رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها ؛ متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها ؛ رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها ؛ رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه

متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ متفق عليه عن عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه ؛ متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها ؛ رواه مسلم عن جابر رضي الله عنه ؛ رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه

في المسجد مع أصحابه

رواه مسلم عن جابر بن سمرة رضي الله عنه ؛ رواه البخاري عن سمرة بن جندب رضي الله عنه ؛ رواه البخاري عن أبي هريرة وأنس رضي الله عنهما ؛ متفق عليه عن أبي قتادة رضي الله عنه ؛ متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه

يوم الجمعة ويوم العيد

رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ متفق عليه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ؛ متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ رواه مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ؛ متفق عليه عن جابر رضي الله عنه ؛ رواه البخاري عن جابر رضي الله عنه ؛ متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

مع الصغار

متفق عليه عن أنس رضي الله عنه ؛ رواه البخاري عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما ؛ متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

رواه البخاري ومسلم عن كعب بن مالك رضي الله عنه

في الحرب

رواه مسلم عن بريدة رضي الله عنه ؛ متفق عليه عن ابن عمر رضي الله عنهما ؛
رواه مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ رواه مسلم عن أنس رضي الله
عنه ؛ متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها ؛ رواه البخاري عن البراء رضي الله
عنه ؛ متفق عليه عن سهل بن سعد رضي الله عنه ؛ متفق عليه عن البراء رضي
الله عنه ؛ رواه مسلم عن البراء رضي الله عنه

في السفر

متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ رواه مسلم عن عبد الله بن عمر رضي
الله عنهما ؛ متفق عليه عن أنس رضي الله عنه ؛ متفق عليه عن عبد الله بن
عمر رضي الله عنهما ؛ متفق عليه عن جابر رضي الله عنه

يوم حراء

متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

ليلة الإسراء والمعراج

متفق عليه عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن مالك بن صعصعة ؛ متفق عليه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ؛ متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه

يوم الهجرة

رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها ؛ متفق عليه عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ؛ رواه مسلم عن البراء بن عازب رضي الله عنهما ؛ متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

يوم الحديبية

متفق عليه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ؛ رواه البخاري عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم ؛ متفق عليه عن البراء بن عازب رضي الله عنهما ؛ رواه البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه

يوم فتح مكة

رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ متفق عليه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ؛ متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

غنائم حنين: الأنصار

رواه مسلم عن رافع بن خديج رضي الله عنه ؛ رواه مسلم عن صفوان بن أمية رضي الله عنه ؛ متفق عليه عن أنس بن مالك رضي الله عنه ؛ متفق عليه عن أبي سعيد الخدري وأنس بن مالك رضي الله عنهما ؛ رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه

شهر في الغرفة

رواه مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ؛ متفق عليه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

يوم عرفة

رواه مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ؛ رواه مسلم عن جابر رضي الله عنه ؛ متفق عليه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها

آخر النهار

رواه البخاري ومسلم عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه ؛ رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها ؛ رواه البخاري عن حذيفة رضي الله عنه

متفق عليه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ؛ متفق عليه عن عائشة رضي
الله عنها ؛ متفق عليه عن أنس بن مالك رضي الله عنه